

٢٠٠٤

الكوميديا العلمية

البعث

رواية من الخيال العلمى

المؤلف

د. أميمة خفاجى

أستاذ مساعد الهندسة الوراثية
جامعة قناة السويس

KhafagyOmima@hotmail.com
02- 4854764
010- 5874048

مراجعة	عثمان نافع
ريشة الفنانة	سمر عدلى
غلاف	أشجان
إخراج فنى	فوتو سكرين ٣٤٧٥٦٨٦
جرافيك	
رقم الإيداع	٢٠٠٤/١٤٧٩٥
الترقيم الدولى	ISBN :977-17-16220

الكوميديا العلمية
البعث

بسم الله الرحمن الرحيم

"وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ"

صدق الله العظيم

(النساء-١١٩)

الفصل الأول

قال رسول الله ﷺ:

الحكمة ضالة المؤمن



رسالة ..!

الأسر أو الإعدام ..

كلاهما يتساويان ..

لكن ..!

كيف يكون هذا هو مصيرها وحدها ،

دون سائر فتيات العالم ؟

بل كيف يحدث لها كل ذلك ..!!

وأدهم مازال حياً على قيد الحياة .. ؟



كان لزاماً عليه ، بل حقاً وجب عليه إنقاذها ، وفك أسرها ، وإطلاق سراحها من تلك الزنزانة التى تحيا فيها حياة الفئران والحشرات.

لكن ..!

كيف سيتسنى له تحقيق ذلك ؟ وهى بكل هذا الحجم والوزن الهائل الضخم !!

رغبة مدمرة .. تعتريه وهو يبذل قصارى جهده لتهريبها من المستشفى .

وخرج أدهم .. تحمله أشجان علىٰ كتفها وكأنه طفل صغير .. ورغم ضآلة حجمه ، وصغره ، مقارنة بها ، إلا انه كان كبيراً .. شامخاً وهو يحقق خطته فى تهريبها .. فظل يرشدها الطريق الذى حدده لتهريبها بكل دقة وبمنتهى الإتقان

وسارا سوياً .



كان الوقت متأخراً والظلام يملأ الأرجاء .. وفى هذا الوقت من الليل لا ترى المارة عبر الشوارع والطرق إلا نادراً .. ومن هؤلاء القلة النادرة كان لا يراها أو يلمحها أحد المارة إلا وتسمرت قدماه ، وشلت حركته من هول وفزع ما يشعر به ، لمجرد النظر إليها ، وبسرعة البرق تختفى عن ناظريه .

فيخالها المارة شبحاً من أشباح الظلام أو هاجساً من خيالات الفكر التى تطالعهم بها وسائل الإعلام ليلاً ونهاراً عن البنت المتوحشة ، والأمراض التى تجتاحها ، فراحوا يتخبطون بها ليروها قبالتهم فى كل وقت .. وكل حين ، من كثرة الخوف والرعب والفزع الذى أصابهم من جراء الحديث عنها .

فراحت صورها المفزعة تتراءى لهم فى كل حين .. فى النوم ، واليقظة ، بل وفى أثناء سيرهم فى وضح النهار أصبحوا يرونها أمامهم .



وظل أدهم يصف لها كيف سيتحقق أمله أخيراً :

ـــ سأؤمن لنا مكاناً لن يعثر عليه أحد..

لنعيش سوياً بعيداً عن الناس والخوف .

بسخرية ويأس تردد :

ـــ بعيداً عن الناس ..!

لم يعر أدهم سخريتها تلك أدنى انتباه ، بل سألها ليخرجها من ظلمات اليأس التى كانت تملؤها ، عن تلك الأوراق التى سألته أن يأخذها معه وكان يحملها ويطويها تحت ذراعه :

ـــ ماذا كتبتِ فى هذه الأوراق يا حبيبتى ؟

ـــ رسالة .

ـــ إلى من ؟

ـــ إليكَ أنتَ يا أدهم .



ــ أأنا بعيداً عنك إلى هذا الحد ؟ لتكتبى إلىّ برسالة؟

ــ كان لا بديل أمامى ، ولا مفر لدى ، سوى كتابتها.

ــ أكافة تلك الأوراق كلها..! مجرد رسالة ..!

رسالة وحسب .. أم أن هناك اعترافاً ما ؟!

ــ كلا .. ليست اعترافاً .. ولكنها رسالة .. وحسب .. فليس هنا ما أسره عنك ، وأخفيه يا أدهم لأعترف لك به الآن .. لا تفرط فيها يا أدهم .. ولتقرأها ملياً .. عساها تذكرك بى دائماً.

فهى حياتى .. وحياة امرأة تملكتها غريزة الأمومة واجتاحت بها .. فقضت على حياتها و حياتى .

كتبتها بعد أن قرأت الحقيقة ، كما صوروها.. واكتشفوها ، وعبروا عنها .. ونشروها فى الصحف والمجلات كما قرأتها .

كنت أريد أن أعرف سر عذابى ..



ربما إننا أو إننى على وجه التحديد .. اقترفت الكثير من الآثام قبل أن أولد ..!!

أو ربما سننعم بالكثير من السعادة بعد أن نموت ..!!

وإلا لما احتوت الحياة والدنيا على كل هذا القدر الهائل من المعاناة والعذاب والآلام ..!

لقد أماطت اللثام عن الأسرار التى حُجبت عنى طوال حياتى ، ولكنها كانت ليست الحقيقة كلها .. فقد كان شيئا ما .. ينقصها .

شئ ما ..!

جعل أحداثها تلك غير متكاملة .. مبتورة .

وهذا الشئ هو مشاعرى أنا.

كتبتها كلها.. بلا بتر.. بلا حذف .. بلا خجل .

دونتها كاملة .. من أجلك أنت .

أنت وحدك.. يا أدهم .

فأنا كتبت إليك أسرارى ومشاعرى التى لا يعلمها أحد



سواى.. فهى سر حياتى .

وقد فسرت حكايتى المنشورة أسرار أمراضى وفكت شفرة حياتى .. وحلت لغزها .. فلم تعد أسطورة بعد .. ولا لغزاً .. بل أصبحت حقيقة .. مفزعة .. مرعبة .

ولكنها فى نهاية الأمر .. دعوة للحياة .

ـــ لحياتنا سوياً يا حبيبتى .

واقتربا من حافة الطريق الزراعى ..

وكانت الشمس تفكر فى خلع ردائها الأسود لتخرج من سباتها .. فأجلسها أدهم فى مكان هادئ ، خفى وقد نجح فى الابتعاد والاختفاء عن عيون الآخرين وجلست لترتاح.

كم كانت بحاجة ماسة إلى تلك الراحة .. تشعر وكأنها لم ترتح فى حياتها سوى الآن .. الآن فقط .

ورقدت أشجان .. فوق حشائش الأرض الزراعية تحت ظلال شجرة ضخمة .. لكن أشجان أيضاً كانت ضخمة ... بل



وهائلة الضخامة .

أغمضت عينيها ..

بعد أن جذبت يد أدهم ، ووضعت كفه الصغير فوق قلبها .. وراحت فى سبات عميق .. وكأنها لم تنعم بهذا الهدوء وتلك السكينة منذ عهد طويل .

وكم بلغت سعادة أدهم وهو يراها هكذا ..

نائمة .. هادئة .. مطمئنة بجانبه ..

وباتت عيناه تحرسها .. كان يراها بعيونه .. هو .. هو وحسب .. فهو لم يرها متوحشة متضخمة كما يراها الآخرون . كلا .. فهى عروسه .. التى ستظل دائما جميلة رقيقة .. حتى خيل إليه الآن ، وهو ينظر إليها ، وهى غارقة فى سباتها وكأنها " الجميلة النائمة ".

ونشر رسالتها أمامه وراح يقلب فى صفحاتها بلهفة ليقرأها قبل أن تستيقظ من نومها .

***



الفصل الثانى

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله ،
وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم .

أبو الطيب .



السر الغامض...

سبحان الله .. !

نفس الشكل ..!

الشعر الأسود ، والعينان السوداوان ذواتا البريق اللامع الخلاب ، اللتان تتوسطان الوجه الخمرى ، الساحر الجميل . هى نفسها .. ملامح طفلتها ، وقد عادت إليها من جديد .



ردّت إليها بعد طول غياب ، وكأنها لم ترحل عنها بعد .. وبين البكاء والضحك ، والجد واللعب ، كبرت أشجان خرجت من غرفتها .

زهرة رقيقة .

تتحرك على أطراف أصابعها ، وكأنها تطير ..

لا تسير ، فتبدو كفراشة هائمة .. تغريك باللحاق بها.

الجميع ينتظرونها فى ردهة البيت الفاخرة الفسيحة .

وبين الأقارب والأصدقاء ، بحثت عيناها بين هذا وذاك عن شخص بعينه ، كانا دائماً متلازمين ، لا يفترقان فى المدرسة ، وبمجرد أن وقع بصرها عليه توردت وجنتاها خجلاً ..

وانبعثت الحرارة من وجهها ..وتقابلت رموشها بسرعة فى قبلات خاطفة ، مضطربة ، لتخفى خجلها.

نهضت أمها " ضحية " من مقعدها ، تنادى عليها :

ــ هيا يا حبيبتى ، ضعى أربع عشرة شمعة بنفسك ،



ولا أكثر ، فلا تخدعيننا وتضعى أربعاً وعشرين . تلفتت أشجان يميناً وشمالاً بحثاً عن " دنيا "

فسألت أمها بتلعثم وخوف وتوجس :

ــ لكن .. أين .. أين ؟

ــ عمن تبحثين ؟ الجميع هنا حولك وفى انتظارك ،

هيا لتطفئى الشموع يا حبيبتى .

نظرت خلفها بتعثر :

ــ لكن أين دنيا ؟

بغضب وتعصب أجابتها أمها :

ــ دنيا ، دنيا ، هيا حتى لا تتأخرين على ضيوفك .

ــ لكن ، أرجوك يا أمى ، لا تغضبينها فى عيد مولدى

أرجوك .. دعينى أناديها .

قبلت الأم على مضض ، وتركتها .



فتحت أشجان الباب بعد أن نقرت بأناملها عليه بلطف.. فأبصرت دنيا تتظاهر بالإعياء والتعب قائلة :

ــ أشجان !!

جلست بجوارها على الفراش ..

تجذبها وتدفعها للنهوض قائلة :

ــ أولاً لست أشجان .. وقلت لكِ مراراً إننى إش إش، إش إش حبيبتك .

فابتسمت ابتسامة متكسرة .

فأردفت أشجان بمداعبة تقول :

ــ هيا .. أرجوكِ .. لا داعى للتمثيل .. فأنا أعلم جيداً أنكِ لستِ مريضة ، فأرجوكِ تتحملى هذا اليوم من أجلى .. أنا لن أستطيع إطفاء الشموع دونك .. أرجوكِ .. لا تتذكرى إساءة أمى إليكِ اليوم ، وانسى كل شئ .



ابتسمت برضا عذب .

فألقت أشجان بنفسها بين ذراعيها وقالت :

ــ لقد كبرت فى هذا الحضن الذى يمنحنى الحنان والأمان ولن أتنازل عنه أبداً .. فأرجوكِ .. لا تبتعدى عنى ، فأنا جزء منكِ ، هيا حتى لا تنزعج أمى وتنطلق رصاصاتها من فمها الرشاش .. هيا .

وبسرعة ارتدت دنيا رداءها البسيط ، كانت جميلة ، فهى شقراء جذابة ، ليست بحاجة لوضع أدوات وأقنعة التجميل.

كانت أشجان تتحرك بسرعة ، وكأنها تنط وتقفز كالعصافير ، تغمرها السعادة من كل جانب ، ربما لوجود أدهم ، زميلها ورفيق دراستها،وربما لمحاولة إقامة هدنة من الصلح والوئام بين أمها ودنيا التى تحسن مثواها ورعايتها.



وقف الجميع حول طاولة الضيافة والاحتفال فى مأدبة من الفرح و السعادة .

نظرت حولها يميناً وشمالاً .

ما أجمل هذا الحشد البديع ، كل من تحبهم يحيطون بها ، يحتفلون بيوم ميلادها .

كان أدهم يقف يتأملها بحب وإعجاب .. توارت دنيا عن الأنظار برضا عذب ، وقبول حسن ، كانت تلاحظ بشعور الأم تبادل تلك الرسائل بين كل من أدهم وأشجان عبر نظراتهما المتبادلة التى تسفر وتكشف عما يخفيانه ويضمرانه من حب وعاطفة ، بريئة ، جميلة ، خالية من كل الأغراض.

كان أدهم يقف فى مواجهتها من الطاولة ..

قبالتها مباشرة .



ابتسمت دنيا وهى تلمحهما وقد خيل لها أنها أمام وجوه لعرائس قصص الأطفال الملونة فكان شعر أدهم يتدلى أعلى جبينه فى خصلات ناعمة ، لامعة ، وعيناه الواسعتان تتحركان طوال الوقت بقلق محب ، مكتوف اليدين .

كان يود أن يكون رجلاً أمام أشجان ، فارتدى بدلة كاملة برابطة عنق ملائمة مع لونها ، وكأنه فى مقابلة رسمية أو يستعد لمواجهة كشف الهيئة .

يتحرك بتؤدة وهدوء ، كالكبار ،

بعيداً عن الهزل واللعب.

أطفئت الأنوار. ولم يبق سوى ضوء الشموع والحب.

***



واقتربت وجوه الجميع عندما مالوا برؤوسهم حول الشموع .. ووجههما يتقابلان ليطفئا الشموع سوياً .. ولأول مرة تلتقى أنفاسهما عبر الشموع ووسط الجميع .

وبدأت الأم بتقبيل أشجان وتهنئتها ، ثم تلاها أبوها ، ثم اقترب باقى المدعوين يقبلونها ، ويقدمون لها الهدايا .

وتلفتت أشجان مرة أخرى لتبحث عن دنيا ، دهشها اختفاؤها مرة أخرى .

فقلق أدهم واقترب من أشجان قبل تهنئتها يسألها :

ـــ عمن تبحثين ؟

ـــ عن دنيا . أين اختفت .

وأسرعت قبل تقطيع ـــ التورتة ـــ تنادى عليها

دنيا .. دنيا .. دنيا ..







وارتفع صوت الموسيقى صاخباً وأقيم الرقص والضحك. كانت دنيا بمفردها تتوسط غرفتها ، تمسك بإحدى عرائس أشجان .. فقالت لها أشجان بلوم وعتاب :

ــ أتتركين عروستك إش إش لتجلسى مع باربى الصناعية ؟

لفت دنيا ذراعيها حول أشجان تحتضنها بفرح أم شعرت بأن فتاتها كبرت وتحب ، وعريسها موجود أمامها .. فقالت لها :

ــ كل عام وأنتِ بخير يا حبيبتى .. أصبحت عروسا وأخرجت علبة صغيرةً فتحتها أشجان فوجدت عروسين يتراقصان على أنغام انبعثت من العلبة الفضية فور فتحها.

قالت أشجان بانبهار :

ــ الله .. كم هى جميلة .

ــ وهو أيضاً جميل .



ـــ من ؟ هو من ؟

ـــ اذهبى يا إش إش لأصدقائك ، إنهم فى انتظارك ، ولا تشغلى نفسك بى ، فأنا سعيدة لسعادتك يا حبيبتى.

خرجت أشجان .. تمسك هديتها ، فرحة بها كطفلة صغيرة، ومن بين أصدقائها اقتربت من أدهم لتريه هدية دنيا.

ـــ انظر يا أدهم .. ماذا ترى ؟
لقد أهدتنى أمى الصغيرة أمى الحبيبة هذه الهدية .

اندهش أدهم قائلاً :

ـــ هل دنيا أمك يا أشجان ؟

ـــ كلا يا أدهم ، لكننى أشعر أنها تحبنى أكثر من أمى فهى مثل أمى تماماً ، ولا أخفيك سراً فأنا أحبها أكثر من أمى، لقربها منى ، وحبها ، وفهمها لى ، فأنا لى أمان ،

أم كبيرة وأخرى صغيرة . وما العجب فى ذلك ؟ انظر .. انظر ، ماذا ترى ؟ بل ما رأيك ؟

أشار أدهم بإصبعه على العروس الراقصة قائلاً :

ـــ من هذه العروس ؟ هل هى أشجان ؟

ـــ كلا .. إنها إش إش .

ـــ من ؟

ـــ إش إش.

ثم أردفت تقول له :

ـــ تعرف يا أدهم أنا أحب أن تنادينى بـــ إش إش وليس أشجان.

ـــ إش إش .. جميل هذا الاسم من أطلقه عليك ؟

ـــ أمى دنيا .



دون أن تدرى أطلقت عليها كلمة أمى ، شعور خفى يفرض نفسه عليها ، فلم تعد بقادرة على مقاومته .

ــ كم هى رقيقة يا إش إش ..

أنا أيضاً أصبحت أحبها مثلك تماماً .

ــ من ؟ تحب من ؟

ــ أمى دنيا .

ثم لاحقها بقول :

ــ لم تجيبى على ؟

إذا كانت تلك العروس إش إش الجميلة ، فمن هذا العريس ؟

ــ لا أعرف .

ــ لكننى أعرف .



جرت أشجان وأسرعت تعد صحناً من أشهى المأكولات لتقديمه لدنيا .. وأسرعت به إلى دنيا.

ــ ما رأيك يا أمى فهذا ما تخيرته لكِ ؟

كاد قلبها يقفز من بين أضلاعها فرحاً ، وسعادة بكلمة أمى .. لأول مرة تناديها بأمى .. دون طلب أو إشارة أو حتى مجرد تلميح .. كم أسعدتها تلك المناداة .

ورغم انها كانت ليست بحاجة إلى تلك التسمية إلا أنها كانت مغتبطة أشد الاغتباط بها ، فشعور أشجان وحبها لها الفطرى يغنيها عن أية تسمية أو مسمى يطلقونه عليها .

فقالت لها :ــ أرجوكِ يا حبيبتى ، لا تكررى تلك المناداة مرة أخرى وإلا سمعتك أمك ، وظنتنى حرضتك ودفعتك على ذلك !!



قالت أشجان بعنف بعد أن ضاقت ذرعاً بلوائح المحذورات وقوائم الممنوعات التى تفرضها عليهما أمها ليلاً نهاراً .

ــ وماذا فى ذلك ؟

ــ فى ذلك حرمانى منكِ يا حبيبتى .

ــ أتظنين أن أمى بوسعها التفريق بيننا ؟

ــ إذا شعرت بهذا الحب ، لن تتردد فى التفريق بيننا ، فهى تحبكِ كثيراً ولن تسمح لمخلوق على وجه الأرض أخذك منها .

ــ ولكنكِ تحبيننى أكثر منها ثم أننى لست حكراً عليها ، فأنا لست ملكاً لها ، وأنا أحبك كثيراً ، ولكننى لا أعرف لماذا أنتِ دائماً...

قاطعتها دنيا وهى تدفعها نحو الباب بلطف :

ــ الوقت ليس مناسباً لإثارة تلك الأسئلة الآن.



واخرجي لضيوفك وأصدقائك ، وارقصى والعبى معهم .

ــ أألعب !! أتظنين أنى مازلت صغيرة .

ــ كلا يا حبيبتى .. لقد كبرتِ .. كبرتِ جداً

ونضجتِ وأصبحتِ عروسا .

خرجت أشجان متظاهرة بأنها نفضت كل الهواجس من رأسها..

كانت أمها مشغولة بضيافة المدعوين للحفل.

وفجأة دق جرس الهاتف .

أسرعت أشجان لتجيب عليه ..

قال المتحدث باللغة الإنجليزية :

ــ ضحية هل خابرتكِ فى وقت غير مناسب أسمع صخب موسيقى وأغانى ؟

ــ لست ضحية .. من الهاتف ؟



ــ معذرة .. هل من الممكن التحدث مع السيدة ضحية من فضلك ؟

ــ إنها مشغولة الآن .. من المتحدث ؟

ــ أنا أنتينورى .

أسرعت ضحية تجرى نحو أشجان عندما سمعتها تتحدث بالإنجليزية وخطفت مسماع الهاتف بفزع من كف أشجان .. وبطريقة غير لائقة أدهشت أشجان ، وأثارت فضولها ، وهى تقول لها بتوجس :

ــ عودى يا حبيبتى لأصدقائك وحفلتك .

ــ من أنتينورى هذا يا أمى ؟

ــ اذهبى الآن .

وجذبت الأم الهاتف بأكمله لنقله داخل غرفتها وأغلقت دونها الباب .



لاحظ أدهم تغُير وتبدل أشجان فقال وهو يشير بإصبعه على طبق المأكولات :

ــ وأنتِ يا إش إش .. ألم تتناولى شيئا معى ، هيا تفضلى لقد أكلت نصف هذا وعليكِ بالنصف الآخر .

لم تسمعه أشجان ، بل كانت شاردة فى الهاتف وأنتينورى وعلاقته بأمها ، واضطراب أمها لسماع اسمه ، ومحاولتها إخفاء الحديث الذى يدور بينهما ، كانت حائرة لغموض أمها وتصرفاتها ، وقسوتها مع دنيا ، ولم تنتبه أشجان لتصحو من سنتها إلا بنداء أدهم عليها المتكرر .

ــ إش إش .. إش إش .. أين ذهبتِ ؟

ــ كلا يا أدهم هيا بنا .

ــ إلى أين ؟ ألم تسمعى ما قلته لكِ ؟ أريدك أن تأكلى مما أكلت منه ليكمل كل منا الآخر .



مدت أشجان يدها وقد أثارت أمها حزناً دفيناً فى نفسها ، حزناً طالما عجزت عن إخفائه .

لقد تركتها وأسرعت إلى غرفتها لتحادثه كيفما تشاء ، بعد أن تركت خلفها ، سيلاً .. متدفقاً من علامات الاستفهام .

لقد حركت الجمر النائم فى كيانها .. لتثير حولها جواً من الحيرة والقلق من جديد .. عاصفة من الهواجس والشكوك تنبعث من داخلها لتحطم سكونها وهدوءها وكل ما يحيطها .

لماذا تخفى الأم عنها أشياء ، وأشياء لا حصر لها ؟

لماذا دائماً تتهامس مع أبيها وعندما تقترب منهما يقطعان حديثهما باضطراب ؟

قطعاً لأنهما يخفيان سراً ما متعلقاً بها هى على وجه التحديد .. وربما متعلقاً بدنيا ؟ ولماذا تكره دنيا كل هذه الكراهية وتبغضها ؟ولماذا تعيش بينهما دنيا إذا كانت راغبة عنها .. زاهدة فيها ؟



فى لحظة واحدة .. تغير لونها .. وأصفر وجهها .. وتاهت عن الحضور .

وشعر أدهم أن شيئاً ما ، بل ما أكثر الأشياء المبهمة الخفية التى شغلتها عنه. ولكن عينيها تكشفان عن حيرتها تلك يسألها أدهم :

ـــ إش إش .. ما شغلك عنى الآن ؟ ما الذى عكر صفوك بهذه الطريقة ؟ من الذى أجبت عليه فبدل أحوالكِ بهذه السرعة ؟ ماذا بكِ ؟ بل ما أصابكِ ؟

ـــ كلا ..! كلا يا أدهم .. لا شئ بعد ،

هيا بنا لنتحدث مع أصدقائنا .

وحاولت ..وعبثاً حاولت قدر استطاعتها ، إخفاء ما بها من قلق وحيرة واضطراب حتى ينتهى الحفل .

لكن أدهم بسرعة تحول مثلها.. قلقاً لشحوبها ، حائراً لشرودها..أسرعت أشجان بعد انتهاء الحفل إلى غرفة أمها وكم ظلت تنقر وتقرع على الباب بأناملها الرقيقة الدقيقة

الناعمة ، ولكن أمها تظاهرت بالنوم ، هرباً من الإجابة عليها.فلاذت أشجان بدنيا تسألها علها تريحها :

ــ أتعرفين شخصا يدعى أنتينوری ؟

اهتزت الأرض من تحت قدميها ،

زلزال كاد يقضى عليها بسماعها اسمه ..

وامتقع وجهها وهى تردد باضطراب وخوف :

ــ أنتينوری !!

***

الفصل الثالث

بقدر الجد تكتسب المعالى ،
ومن رام العلى سهر الليالى .
تروم المجد ثم تنام ليلاً ،
يغوص البحر من طلب اللآلى :
ومن طلب العلوم بغير كدٍ ،
أضاع العمر فى طلـــب المحـــال .
أبو العلاء .



لبن العصفور حقيقة ..!

اندهشت أشجان هل الجميع يعرفون أنتينورى هذا ولا يجهله أحد سواها ؟

ــ من هو أنتينورى هذا ؟

ــ أسألى أمك يا حبيبتى .. فأنا لا أعرف شيئاً .

ــ وأنا الآن أسأل أمى .. ألستِ أمى ؟ فلا تكذبين على ، فالكذب لا يعرف طريقه إليكِ .. وإذا كنتِ حقاً لا



تعرفين ؟ فلماذا امتقع وجهك واضطربت عند سماع اسمه ؟ إذا كنت حقاً لا تعرفينه !! لماذا تخفين على الحقيقة ؟

حتى أنتِ لا تحبين أن تريحيني ، إنكما تخفيان عنى أشياء كثيرة ولا أحد يجيب على كل الأسئلة التى تدور برأسى فتكاد تعصف بى . إنكما تتضافران على تعذيبى .

تمزقت دنيا وهى تراها تتلظى بنيران الحيرة ، والقلق ، وتقف عاجزة ، مكتوفة اليدين ، لا تستطيع الإجابة عليها .

ــ أية أسئلة تلك ؟ ولماذا تحيرين نفسك وتشغلين نفسك بأشياء لا علاقة لكِ بها ؟

ــ كلا .. فأنت تعرفين جيداً أن كل ما يحدث له علاقة بى ، وإلا فما الداعى إذن لإخفائه عنى ؟ إنكِ تعرفين كل شئ .. مم تخافين ؟ وإذا كانت أمى حقاً تكرهكِ فلماذا تتركك تعيشين معنا ، فى بيت واحد ؟ ما الذى يضطرها



ويجبرها على ذلك ؟ ما الذى يضطركِ على تحملها ؟ فى سبيلى ..!!أليس كذلك .. ؟

الكل هنا يفعل أشياء ، وأشياء .. وما أكثرها غرابة تلك الأشياء ، والتضحيات التى تُفعل من أجلى .

ـ إش إش حبيبتى .. لا داعى لكل هذا القلق، صدقينى يا حبيبتى لو كنت أعرف شيئاً ما ، ما أخفيته عنكِ.

تركتها أشجان وهى لا تزال مضطربة ، حائرة ، غير مقتنعة بإنكارها معرفة ما يحدث .

ولكن ..!

منذ هذه اللحظة قررت أشجان أن تفهم وتعى كل شئ ، فهى لم تعد صغيرة ، لقد كبرت ، كبرت كثيراً .

فالأمر يختلف الآن أشد الاختلاف .

لقد أصبحت فى الرابعة عشر من عمرها ..!

***



استطاع أدهم أن يخطو بخطواتها ليقترب منها ، حتى نالت صداقتهما البريئة العميقة إعجاب المحيطين بهما وحسدهم .. وراحا ينسجان خيوطهما العنكبوتية للمستقبل المجهول ، ويبنيان عشهما المزخرف بشتى ألوان الحب التى لا حصر لها .

كبرت أشجان .

أصبحت عروسا من عرائس الخيال .. ولكنها عروس حائرة ، دائمة التفكر والتأمل . لامعة عيناها كالمرآة .. تكشف لناظريها عما بداخلها من اضطراب ، وقلق ، وعذاب . وابتسامتها العذبة ، وضحكتها الساحرة .. التى لا تشبهها ضحكة أنثى فى العالم ، فليست بالضحكة الهادئة ولا الصاخبة ، ولكنها ضحكتها هى ، هى وحدها التى تضحك تلك الضحكة الساحرة ، فهى تضحك بملء ما فيها ، فتشعرك وكأنها لا تضحك هكذا أبداً لأحد سواك .. نابعة من قلبها الصغير ضحكتها تلك .



فهى وحدها التى تمتلك تلك العذوبة الساحرة ، الخلابة ، فتسر الناظر إليها لتزيل كل ما به من أحزان وهموم وآلام .

رشيقة هى .. كالفراشة ، تسبق فتياتها اللاتى يتحركن ، فتظن عند رؤيتها إنها تطير لا تسير ، وقدر هذه الرقة ونعومتها ، قدر خشونة أدهم وفتوته . كانت ضفيرتها السوداء التى تتدلى على صدرها تصل إلى خصرها الدقيق الذى يفصل صدرها عن ردفيها وكأنك أمام قانون من قوانين الطبيعة التى ليس به أى خلل أو عجز أو نقص .. فيصعب عليك العثور فيها على غلطة واحدة بجسدها الجميل ، الرائع الحسن والجمال .

تارة تشعرك بأنها ما زالت طفلة فى الخامسة من عمرها وأخرى تجعلك تتيه غرقاً فى عينيها اللامعتين الحوراوين .. عميقة كعمق البحار ، تغرق فيها لتتقاذفك أمواجها بلا رحمة أو شفقة ، فلا يحميك من حبها شطآن ، ولا قبطان .عينان .. مليئتان بالتعبيرات الحلوة الفياضة .



فيكفى نظرة واحدة منها لتعلم كل ما تخفيه وتستره وتبطنه بداخلها ، عينان شفافتان .. كالمرآة ، تعكس كل ما فيهما .. دون تحدث أو كلام أو حتى مجرد إشارة .

ولكن ما بالها اليوم تمشى بخطوات بطيئة على غير العادة ، كانت تفكر فى حزن دنيا ، وقسوة أمها عليها ، وفتور أبيها "سرحان" ، وعدم اكتراثه بما يحدث سوى إرضاء أمها ، وكأن كل مهمته فى هذا البيت ، ودوره فى الحياة هو إرضاؤها وحسب .. أحيانا تشعر أنه لا توجد صلة ما تربطها بهذا الرجل الذى يدعى أبوها .لوحة غريبة .. من صنع الحياة ، لا تفارق عينيها .

كانت تسير كعروس متحركة ، حتى أدهم لم تبصره عيناها ، وكأنه ليس واقفاً كعادته فى انتظارها .

ينادى عليها بينما هى تسير هكذا كالنائمة أو التائهة :

ــ أشجان .. أشجان .



التفتت بغتة ، فانتفضت ضفيرتها الطويلة للخلف وهى تهمس:

ـــ أدهم !

وبسرعة علت الفرحة وجهها ..

فكم هى بحاجة إليه الآن أكثر من أى وقت مضى .

كانت مجرد رؤياه تريحها من أى حيرة تعتريها ،

تنقذها من عذاب الشك وقلقه .

ـــ أشجان منذ عيد مولدكِ وأنت على غير ما يرام ، دائمة الفكر ، شاردة الذهن ، ماذا بكِ ؟ إذا كنت لست أهلاً لثقتكِ ، فليس هناك معنى وفائدة لوجودى إذن !

جمعت كل قواها لتبتسم ، بل لتخفى كل ما فيها من ألم وعذاب عنه فجاءته ابتسامتها تلك فاترة ، حائرة :

ـــ كيف تقول ذلك القول يا أدهم ؟



أنت لا تعرف إذن كم هو قدرك عندى .. أنا أحياناً أشعر أنك كل دنياى ، وأنه ليس لى أحد سواك فى هذه الحياة ــ ولكننى لا أستطيع رؤيتكِ بهذه الحيرة والقلق وأقف عاجزاً مكتوف اليدين ، ليس بوسعى أرى أمواج عالية تعكر صفو شطآنى الهادئة بعينيكِ !!

أجيبى علىُ .. ما الذى يقلقك بهذا القدر الهائل ويبعدك عنى ؟

ــ لن يبعدنى عنك شئ ما أبداً يا أدهم .

لم تهدأ حالة أدهم بعد فأردف يقول :

ــ فلماذا إذن لا تصارحيننى ، عساى أجد لكِ مخرجاً مما أنتِ فيه أو يكون بوسعى ما أفعله من أجلكِ ؟

ــ صدقنى يا أدهم ليس هناك شئ ما .

وتوقفت أمام شجرة كبيرة وقد تدلت فروعها على الأرض فجلست عندها لتحادثه ، ولكنها لم تستطع التحدث إليه ،



بل راحت تطيل النظر إليه ، وكأنها تتأمله بصمت ، فى حالة وداع .

ـ أشجان هل تحبيننى قدر ما أحبكِ ؟

ـ ليتك أنت تحبنى قدر ما أحبك !

ـ لكننى خائف .. فإخفاؤك عنى ما بكِ ، يخيفنى ، يشعرنى بالغربة .. وبأنك وحيدة رغم وجودى معك !!

أفزعتها أقواله تلك ، فتلفتت إليه مذعورة :

ـ إياك وهذا القول مرة أخرى يا أدهم ؟

إنك لا تعرف إذن كم أحبك حتى الآن !! كانت الثقة والأمان والحب هم كل رأسمالهما فى هذه الدنيا ، ينتظران متى يأتى اليوم الموعود الذى يجمعهما ويترقبانه.

***



فتحت الأم " ضحية " طاولة الكتابة لتخرج ورقة من دفتر رسائلها ، لتدون به ما سترسله لأنتينورى عبر -Internet- الانترنت بالكمبيوتر.وجمعت عددا مختلفاً من صور أشجان وراحت تكتب أحداث حياتها بكل التفاصيل الممكن عرضها ، كما طلب منها ، وغمرتها السعادة وهى تقلب فى صورها لتختار منها أيهم سترسله إليه .

يقلب أنتينورى صفحات الرسالة بالكمبيوتر التى وصلته من ضحية ، يملؤه الاغتباط والفرحة ، ينفض شعره الناعم وخصلاته المتدلية فوق جبينه رغم محاولته تصفيفها للخلف ، وتعلو شفتيه ابتسامة هادئة تمنحه القوة والثقة إن لم يكن الغرور وهو يقرأ كيف تعيش معجزته أشجان ، وتهنأ بحياة طبيعية ، فهى كلها إحساس ، ورقة ، وعذوبة ، وجمال ، وثقة ، وذكاء وكأن كل خصال العالم المميزة قد جّمعت كلها لتصب فيها وحدها دون سائر الخلق .

كان أنتينورى لا يضيع ثانية واحدة من وقته ، فهو يجلس فى معمله فى إيطاليا ليقضى معظم وقته به بين أبحاثه وتجاربه العلمية ، فهو يعمل كثيراً . وجاءه خبر نجاح أشجان وسعادة أمها بها ليمسح به كل تعبه وإجهاده ومسيرته البحثية.

لقد استطاع إعادة الابتسامة والحياة لامرأة بعد طول يأس وحرمان ، وقد تعود هو أن يفعل المستحيل ، بل لا يوجد فى حياته ما يدعى بالمستحيل ، ولذلك لقب "بأبو الأطفال المستحيلين".

دخلت زوجته شريكته العلمية لتضع أطباقاً زجاجية صغيرة مرتبة مرقمة ـــ أطباق بترى المعملية ـــ المليئة بالبويضات المخصبة صناعياً فى الحضانة لتحضينها .

سألته :

ـــ ما لى أراك مغرماً برسائل الانترنت اليوم على غير العادة !!

نهض من مقعده وتنهد الصعداء وهو يقول :



ــ طالما تساعديننى وترافقيننى سيكون حليفنا النجاح دائماً.

وكان هذا هو المستشفى الوحيد من نوعه بعد إغلاق عيادته الخاصة وطرده من الجامعة لمحاولته استخدام الإنسان فى تجاربه العلمية .

ولكن بمساعدة زوجته أصر على عدم ترك محاولات إجراء تجاربه البشرية حتى و لو تم رجمهما لحين نجاحها .

وخلع معطفه الأبيض وأمسك بذراعيها قائلاً :

ــ اليوم تأكدت فرصتنا بعد أن تمت الفتاة الرابعة عشر من عمرها فى نموها الطبيعى ، كل عام كان ينتظر هذه الصور لمتابعتها ، وضعها فى الدفتر الخاص بالصور وبكامل خطوات التجربة وضغط على مفتاح الطباعة لتطبع كل ما جاء عنها من صور وأخبار.



كان يضيف كل عام صوراً لأشجان بلهفة وسعادة غامرة .. كان نجاحه يزيده طمعاً .. أليس لمطامع الإنسان آخر .. ؟ أم إنه كلما حقق مطمعاً جد مطمع غيره ؟ وربما يستعد أنتينورى استئناف قضيته لأخذ تعويض لما حدث له سابقاً .. وعدم البحث عنه للقبض عليه عندما يشاهد العالم حصيلة تجاربه وأنها ليست ضد القيم والأخلاق ويستطيع بذلك أن يستعيد حريته وإلغاء الحكم عليه الذى لم ينفذ لعدم العثـــور عليه .

رغم انه فى قضية معلقة إلا أن العديد والكثير لجأوا إليه سراً وليس علانية بحثاً عن الإنجاب ، والخلود فمنهم من يرى خلود نفسه باستنساخه ومنهم من يعلق كل أمال وجوده فى إنجاب طفل يرثه ويرث أهله من بعده .

***



كثرت أسئلة أشجان لأمها ..

وكثرت أيضاً محاولات الهرب منها الدائمة التى لا تثير فى نفسها الشكوك وحسب ، بل وتؤكدها أيضاً .

وكثرت أحاديث أنتينورى الهاتفية الطويلة الغامضة .

ولأول مرة تقتحم أشجان خلوة أبيها وأمها وهما يتضاحكان وحدهما فى حديقة البيت الصغيرة فسمعت أقوال أمها:

ــ لكن أنتينورى سعيد جداً ، أنه يريد رؤية أشجان .

سألتهما فور قربها المفاجئ لهما :

ــ من الذى يريد رؤيتى يا أمى ؟

بتعجب واضطراب :

ــ رؤيتك ..!

ــ أجل .. أنتينورى ..!! أليس كذلك ؟!

وأنت أيضاً تعرفه يا أبى!!

كان " سرحان " ليس له قدرة الأم فى تحمل أسئلتها التى لا تنتهى ، فأبعد مقعده عن الطاولة ، وجذب الصحيفة اليومية بيديه ، وأستأذن زوجته وتركهما.

كانت ابنة غريبة بالنسبة له فهو لم يشعر للحظة واحدة ببنوتها وشردت أشجان ، حتى أنت تعرف أنتينورى ، فلابد أن دنيا أيضاً تعرفه ، فليس هناك مجال للشك الآن ، وبالفعل هناك سر ولغز ولابد من كشفه وحله . فعاودت تسأل أمها :ـــ من هو أنتينورى هذا يا أمى ؟

لماذا تخفيان عنى سر هذا الرجل الغامض وعلاقته بكم ؟

وبسرعة استعادت الأم هدوءها وابتلعت توترها واضطرابها وقالت :

ـــ هو الطبيب يا حبيبتى الذى أنقذك وأنقذنى أثناء ولادتك .. ألم أقل لكِ أننى ولدتكِ هناك فى إيطاليا.. أنتِ



عندئذ لم تسأليني لماذا ؟

كانت أشجان تتفحص أمها ونظراتها بحثاً عن خائنة الأعين وما تخفيه الصدور ، تحدثها وكأنها تبحث عن السر الغامض الذى تخفيه فى كلماتها ، ونظراتها التى تحاول اخفاءها وهى تخاطبها . فسألتها أشجان :

ــ لماذا يا أمى ؟ لماذا تمت ولادتى فى إيطاليا ؟ أليس فى مصر بأكملها أطباء ولادة ماهرون لانقاذى سوى فى إيطاليا .

ولماذا إيطاليا وليست إنجلترا أو أمريكا أو فرنسا ؟ ولماذا دنيا أيضاً على وجه التحديد ، وما علاقتكِ بها ، بل ما علاقتها الحقيقية بى ؟

انهالت أسئلتها كالسيل الجارف محطمة به كل الحواجز والقيود الواحد تلو الآخر .. بلا توقف أو هدنة أو رأفة فى طريقة حديثها. كانت لهجتها شديدة .. قاسية ، مليئة كلها بالاتهام وكأن كل مهمتها انحصرت فى البحث عن دليل لإدانتها وإثبات الاتهام الذى يملؤها .



ـ وإذا كنا فى إنجلترا لتساءلت لماذا ليست إيطاليا ؟

كان هذا الطبيب أنتينورى ينقذ الكثيرين من أصحاب العلل المستعصية للعقم والإنجاب وكثيراً ما كانت تتردد أخباره فى الصحف والمجلات ، هذا كل ما فى الأمر.

ورغم أن هذه الإجابة غير مقنعة لها إلا أنها منعتها تكرار هذا السؤال .. ثم لاحقتها بسؤال آخر وكأنها فى تحقيق رسمى :

ـ ودنيا ؟!

قاطعتها بحدة :

ـ ماذا بها دنيا ؟

ـ لماذا دنيا على وجه التحديد ؟

ـ لأنها كانت المرضعة الوحيدة التى عثرنا عليها واختيارها كان نتيجة صحة التحاليل والفحوص التى أجريت عليها.



وطلبنا منها الإقامة ، فرحبت حيث إنه ليس لها أسرة ما .. ولا معين ولا رفيق .. فماذا فى الأمر من غرابة ؟

ـ فى الأمر ..

قاطعتها الأم بقسوة :

ـ أشجان كفى عن أسئلتكِ تلك .. أم انه تحقيق ولابد من استجوابى ،أنا لا أفهم كيف تشغلين بالكِ وفكرك بمثل هذه الأمور التافهة وتتركين دروسك،عودى إلى غرفتك من فضلك.

لم يدر حديث بينهما إلا وازدادت الأم خوفاً وازدادت أشجان بعداً ، واتهاماً ، وإحساساً بأنها ليست أمها . ولا يمكن أن تكون أما لها ، بأى حال من الأحوال !! والذى لا شك فيه هو أن دنيا هى أمها على وجه التحديد ، رغم الفارق الكبير والواسع بينهما .. فى شكلهما ومظهرهما ، إلا أن قلبها يحدثها بأن دنيا هى أمها .. ولا ريب فى ذلك . فلابد من وجود جريمة ما .. يخفيانها ، يتستران عليها .



وراحت تتساءل : هل أنا ابنة دنيا .. ؟ ممن .. ؟ هل أنجبنى أبى من دنيا .. ؟ مما أضطر زوجته " ضحية " لتحملها .. وقد نسبتنى إليها قسراً.. ؟

فهى لا تستطيع إنجابى .. وبالطبع الأب دائم الشعور بالذنب لرؤيتها ، ودنيا مغلوبة على أمرها . مقهورة ..!

رضيت هذه العيشة ، والحياة ، رغماً عنها.. بعد أن أجبرت بالطبع على التنازل عن أمومتها ، ووهبتنى لها ، كراهة وليس طوعاً ، قسراً وقهراً لا طوعاً فى ذلك .

كل ذلك مقابل رعايتى وتربيتى ووجودها بجانبى .

كان هذا هو التفسير الوحيد .. المنطقى لكل ما تراه من فصول مسرحية حياتها ، وبكل ما يحيطها من جو عائلى غريب ، مريب .

وكما كتمت دنيا سرها فى قلبها .. كتمت أشجان اتهامها وأخفته عن الجميع إلا أدهم الذى كان يرى هذا الحمل الهائل من



العذاب والقلق فى عينيها ، فمهما أخفت ودارت وأسرت .. فعيناها هما الوحيدتان اللتان تكشفان عما بداخلها من أسرار وهواجس .

فكان أدهم دائم السؤال وهى واجمة دائمة الصمت ، كان حزيناً لحزنها ، قلقاً لقلقها ، ولكنها كانت ترى فى وجوده معها عوناً وسنداً لها فى الحياة .. مما تخبئه لها من نكبات ومفاجآت غير سارة .

جمعت أشلاءها .. وأفكارها المشتتة وقررت كتمان ما بها،خاصة وأنه ليس هناك دليل لشكوكها وظنونها بأمها.

فحاولت ..! وعبثاً حاولت النسيان .. بين كلمات أدهم وحبه لها الذى يغمرها ويغطيها ، فينسيها كل ما بها من أشجان وهواجس وعذاب .

تحركت تجرى خلفه ، فهى دقيقة فى حجمها ، رشيقة القوام ، جرت أمامه تغريه باللحاق بها ، وتوالت ضحكاتها ، فسمع زقزقة عصفورة تغرد ، وهو يلاحقها فيمسك بها قائلاً:



ـــ إلى متى تخفين على ما تسرينه ؟ ألا تعرفين أنه بوسعى أن أفعل من أجلك أى شئ .. ؟

ابتسمت بعذوبة ونعومة وهمست تسأله بخفة ودلال :

ـــ أى شئ .. أى شئ !!

ـــ ألديكِ شك فى ذلك ؟

ـــ حتى ولو كان ..

قاطعها :

ـــ حتى لو كان لبن العصفور .. سآتيك به إن شئت ؟

ـــ وهل للعصفور من لبن يا فكه ؟

ـــ طبعاً يا حبيبتى للعصفور لبن .

ضحكت :

ـــ كم أنت طريف يا أدهم وأنت تتفكه هكذا .

وبسخرية أردفت تقول :

ـــ وللعصفور وليس للعصفورة .. أليس كذلك ..



أى للذكر وليس للأنثى ؟

ورنت ضحكاتها العالية لتملأ أصداء المكان من حولهما.

بثقة قال أدهم :

ــ قلت لكِ إننى لا أتفكه .

اعتدلت فى جلستها وهى تسأله بجدية :

ــ أتجد فيما تقول.. ؟

ــ منذ متى وعاهدتِ فى الهزل ؟

فنظرت إليه بتعجب متسائلة :

ــ لا تغضب هكذا .. فقل لى إذن ما هو لبن العصفور؟

أردف أدهم يشرح لها وكله ثقة بمعلوماته التى راح يسقيها إياها كل يوم ، فكانت تتلقى منه وتشرب من كأس الحب والمعرفة فى آن واحد .

ــ فلبن العصفور لا يختلف فى جوهره وتركيبه عن لبن أى حيوان من الحيوانات الثديية فهو يحتوى على المادة



البروتينية التى تسمى (كازينوجين) ودهن وسكر اللاكتوز وهى نفس مكونات اللبن الطبيعى المعروف لنا جميعاً ..

إلا أن لبن العصفور أو الطيور بصفة عامة يختلف عن لبن الحيوانات الثديية الأخرى فى بعض الخواص الطبيعية لأنه ليس سائلاً ..

ولكنه على هيئة فتات أبيض اللون هش .. سريع التكسر .. أشبه ما يكون بفتات الجبن الأبيض ، وللعلم يا حبيبتى فإن لبن الطائر تفرزه حويصلة الأنثى والذكر على السواء ..

ولذلك يشترك الذكر والأنثى معاً فى إطعام افراخهما الصغيرة .وعندما تضع العصفورة أو العصفور منقارها فى فم أفراخهما الصغار فتريهما يرتعشان ..



إنهما فى الواقع يطعمانهم لبناً حقيقاً كان فى حويصلتهما .. وما تقومان به هو اجتراره واسترجاعه من حويصلتهما إلى فم صغارهما ومن هنا يا حبيبتى فإن لبن العصفور حقيقة علمية وليس خرافة كما يظن أو يعتقد البعض مثلكِ يا حبيبتى .

***



قالت أشجان والحب والإعجاب يملؤها :

ــ كم يعجبنى فيك ثقتك تلك يا أدهم وأنت تدلى بمعلوماتك تلك الطريفة .. الشيقة والحقيقية أيضاً. فرغم إننا فى عمر واحد إلا أننى أشعر بكبرك عنى ، ووعيك ، وأحب أن أراك هكذا دائماً .. كبيراً .. شامخاً ، من أين أتيت بكل هذه الجاذبية ؟ فثقافتك تضفى عليك قوة وتزيدك روعة فوق قوتك .

ــ القراءة يا أشجان .. فأنا أحب القراءة جداً .

ــ قدر حبى ؟

ــ حبى لكِ لا يعادله شئ فى الوجود .

ــ أنت تحب كل شئ جميل يا أدهم ، لم أر شيئاً جميلاً إلا ووجدتك تحبه . فأنت تحب كل ما يحب .. وتبغض كل ما يوجب كراهته وبغضه .

ــ كم هى جميلة تعبيراتكِ تلك يا حبيبتى ..

كم أنتِ رقيقة .. أنتِ فراشة .. فراشتى أنا وحدى .. فراشتى التى ستظل تحلق فى سمائى أنا وحدى ، إلى آخر يوم فى عمرى .

رددت بتفكر وتأمل :

ـ فراشة !!

ـ ماذا ؟ ألم يعجبكِ التشبيه ؟

ـ كلا .. يا حبيبى .. كيف لا يعجبنى شئ تقوله أنت فأنا يعجبنى كل ما تقوله وكل ما تفعله وكل ما يعجبك

ـ فلماذا شردت ؟

ـ أفكر فى استعارة هذه التسمية منك لأطلقها على رقصتى فى حفلة البالية القادمة بالمدرسة .. سأطلق عليها رقصة الفراشة .. ما رأيك ؟

ـ جميل هو ذاك ، فكل ما تختارينه جميل لأنه لا يصدر إلا منكِ وحدكِ دون الأخريات يا أشجان .

***



وجاءت الحفلة المدرسية لمدرسة " الحرية " وكانت أشجان عروس الحفل راقصة البالية .. وكالمعتاد كانت المشاجرة بين أمها ودنيا "مرضعتها كما علمت " التى أسفرت عن حرمان دنيا من حضور الحفل ، رغم أن الأم وعدت صغيرتها بحضور دنيا معهم إلا أنها حالت دون ذلك سراً وليس علانية . وكالمعتاد أخفت دنيا هذا الحوار عن أشجان حتى لا تعكر صفوها ، وفرحتها بالحفل . وخرجت أشجان وسط الفتيات فى رداء الفراشة لترقص " رقصة الفراشة " كانت لا تتحرك ولا تجرى بل تبدو لكَ وكأنها تطير كالفراشة ، لم تكن أشجان هى وحدها التى تدور راقصة ، بل كانت نظراتها أيضاً هى الأخرى تدور ، تتحرك يميناً وشمالاً ، بحثاً عن دنيا وسط أسرتها فيملؤها الحزن لعدم رؤيتها .

كانت تدور كالعرائس المتحركة .. والأزمات تدور برأسها ، وأحداث حياتها تحلق قبالتها . أخذت تحلق ، ترقص ، بينما عقلها حائر يستعيد حالة دنيا الحزينة وحالة أمها الغامضة



والسر الغامض ، بل الجريمة المتوقعة والتى يتستران عليها فيتحمل كل منهما الآخر. فهى كل ما يجمعهما ، فلم يربط بينهما إلا شئ واحد .. هو حبها وإسعادها .

تمر الذكريات البعيدة منذ طفولتها وكيف تقاوم أمها وهى تجذبها من معصمها لتخرجها من غرفة دنيا أثناء مرضها وكيف تعاودها سراً ، كيف تنهرها دائماً وتسىء معاملتها وتكثر من إهانتها إلا انها تتكلف المودة بمجرد رؤيتها مدعية الرحمة .. إلا أن أشجان كان لا يفوتها ذلك ، ودخولها على أمها بغتة لتراها تغلق ، وتوصد دونها الباب لأقصى ما تستطيع لتحول دون رؤيتها ملفا معينا ، وقد أخفت فيه شيئاً ما . مؤكد أنه متعلق بها وبهما وبجريمتهما أو سرهما ذاك . يومها فلتت صورتها ووقفت دون ملاحظتها تلك . إذ لماذا اضطربت لرؤيتها ؟ لماذا أخفت ما تحمله فى الدرج .. ؟ لماذا طوت الورقة التى كانت تنشرها بين كفيها لتقرأها ؟ لماذا تعيش دنيا وحيدة بلا أهل ؟ ولا أقارب ؟



ولماذا تشعر أشجان بحبها أكثر من أمها ؟ بل وتشعر كثيراً أنها أيضا تبادلها هذا الشعور لماذا ؟ لماذا ؟

وامتلأت عيناها بالسحب القاتمة .. فلمحت أدهم جالساً مبتسماً .. فابتلعت دموعها وبادلته الابتسام لتنسى كل ما فكرت فيه. كان أدهم هو الشئ الوحيد فى هذا الوجود الذى يخفف عنها .. مجرد رؤيته تزيل همومها .. دون عناء أو مشقة فى ذلك . يكفى أن تراه .. قبالتها ، بجانبها ، لتنسى كل شئ . وكل ما يعذبها.. فنظراته تحيل عذابها وآلامها لجنة وارفة الظلال .. تغسل همومها .. ترطب حياتها . كان هو الدفء الوحيد الذى يلتف فى عباءة ابتسامته ليقيها برد الأحداث الغامضة وقسوتها . وانتظرها أدهم ، حاملاً باقة من الورود الجميلة .. ليهنئها .

هلت .. فهلت أشواقه ، ونبضاته تسبقانه ، وخرجا يسرعان ، تجرى يمينه وشماله فيلحق بها قائلاً :

ـــ كالفراش تفعلين ولكننى سألحق بكِ كالمعتاد .



وبين أشجار الطريق .. لحق أدهم بها واختلطت ضحكاتهما بفرحة عامرة .. وهمست بحياء :

ــ أدهم ..

ــ نعم يا فراشتى .

أطالت النظر إليه وكالمعتاد لم تتحدث قط .. واكتفت بنظراتها لتنقل إليه كل ما ترغب فى قوله إليه .. كان صمتها معبراً أكثر من أى كلام أو حديث . وصلا البيت .. كانت دنيا تنتظرها فى الشرفة وكأنها تنتظر حبيباً لها وقد طال غيابه وقلقها عليه فهى كل دنياها .. فأسرعت تفتح لها الباب .. تسبقها ابتسامتها .. فهللت أشجان وهى تجذبها من يديها بعد أن وضعت باقة زهور أدهم على الطاولة ، ثم راحت تراقصها فرحة تقص عليها لقاء أدهم .. وكيف كان جالساً يترقبها فى حفل المدرسة .. قالت لها :

ــ بالطبع كنتِ عروس الحفل .



ـــ كنت فراشة يا دنيا وكم كان كل شئ جميلاً إلا شيئاً واحداً.

ـــ ما هو يا حبيبتى ؟

ـــ هو وجودك معى .. لماذا دائماً ينقصنى وجودكِ ؟ فى أهم المناسبات وأجمل الأشياء تختلقين الأعذار ..!!

هل حقاً أنتِ مريضة ؟ وتشعرين بشئ ما ، جعلك لا تحضرين حفلتى ؟ فلا تشاركينى نجاحى .

اغرورقت عيناها وهى تجيبها بصوت تقطعه العبرات

ـــ أنا دائماً معكِ يا حبيبتى بقلبى وعقلى .. ألا يكفيكِ هذا ؟

قالت أشجان بحزن :

ـــ إلى متى نظل هكذا ؟ أنى حائرة بينك وبين أمى ؟ لماذا لا تتفقان وتعقدان هدنة من أجلى أنا ؟ ما الذى يجعلكما دائماً على غير وفاق ؟ ولماذا تغار منكِ كل هذه الغيرة ؟ إلى



متى يستمر هذا الوضع الغريب بيننا ؟ إنك تعطيننى كل شئ ولا تأخذين أى شئ .. حتى وجودك وحضورك بين الناس تُحرمين منه..!!! لماذا ؟ ما الذى فعلتيه وأقترفتيه لتجنى كل هذا ؟

ــ لكن كل هذا لا يؤلمنى .

ــ لكنه يؤلمنى أنا .. فأنا بحاجة لوجودكِ معى ..

ولكن ..!

لماذا تفعل أمى كل هذا .. ؟

لماذا تحول دون وجودكِ المستمر معى لماذا ؟ لماذا لا تريحينى وتقولين لى السر الغامض الذى يجمعكما ويضطركما للعيش هكذا ؟

***

الفصل الرابع

قال الحسن :

إن لم تطعك نفسك فيما تحملها عليه مما تكره ، فلا تطعها فيما تحملك عليه مما تهوى

بوصى لا تعنى قَبِّل ..

قالت دنيا بهدوء :

— حبيبتى .. للمرة الألف .. أكرر عليكِ ، ليس هناك سر ما .. واطردى عنك كل هذه الهواجس الشيطانية التى تملأ رأسك ودعى تلك الأفكار .. وفكرى فى أحلامكِ الجميلة .. ودراستكِ .

وتركتها ودخلت غرفتها لتنتحب وحدها .

كانت أشجان تشعر بمعاناتها التى لا معنى لها فى قاموس حياتهم .

***



كان جميع أفراد الأسرة لا يتحركون إلا بالسيارة فيما عدا دنيا فهى الوحيدة التى تتحرك بالمواصلات العامة أو تؤجر سيارة أجرة .

كانت هذه المسألة لا تشكل لها أى مشاكل سوى معرفتها بالطرق ، وعناوين الأماكن التى تتردد عليها ، إلا أنها كانت تفضل أن تقضى أشغالها عبر قطار الأنفاق — المترو — كانت دنيا بدأت تشعر بالملل ففضلت البحث عن عمل وتم تعيينها بالمكتب الثقافى الإيطالى .. منذ تمت أشجان السادسة من عمرها وهى تعمل به .

أصبحت تتقن اللغة العربية الفصحى مع تعلمها من المحيطين بعض الكلمات العامة .. كانت تجد صعوبة شديدة فى التعامل مع الآخرين وفهمهم ، إذ أنهم يتحدثون لغة أخرى ، غير تلك الفصحى التى تعلمتها .



أسرعت تضع كارت المترو فى جهاز المرور والعبور وكان القطار بدأ يصفر إيذاناً بالوصول للمحطة ، فأسرعت دنيا تجرى . نظر إليها شابان قال إحدهما للآخر باللغة العامية : ــ بوص الحلوة دى ــ فجرت من أمامهما بفزع ، خوفاً من تقبيلها. ثم صعدت بسرعة إلى القطار وكأنها أفلتت منهما . حاول رجل المرور وسط الزحام من خلفها فسألها بالعامية :

ــ " بوصى ما تقفيش كده اتحركى " ..!

فزعت لما يطلبه منها بقوله " بوصى التى ظنتها بوسى" وتحركت بعيداً عنه بخوف وذعر ..

كيف يسألها أن تقبله ولا تقف هكذا صامتة ثم ترددت كلمة بوصى .. بوصى . كانت تتحرك من مكان لآخر داخل عربة القطار بسرعة . وبفزع متسائلة :



لماذا يسألنى الجميع أن أقبل .. ؟ وأقبل من ؟ وكيف يجرى خلفى الفتية فى الشارع ويقول أحدهم للآخر بوص الحلوة دى وكأنه يأمره بتقبيلها ..! ماذا حدث ؟

أسرعت دنيا تسأل مربية البيت بعد أن بدلت رداءها :

ــ لقد حدث ما أفزعنى اليوم .. فى الشارع .. فى القطار .. لماذا يسألنى الجميع أن أقبل ؟ فيرددون دون داع لذلك بوسى .. بوسى .. وأقبل من ؟ ولماذا ؟

ضحكت المربية ورنت أصداء ضحكاتها فى المطبخ وفسرت لها معنى كلمة بوصى العامية التى تعنى انظر . تعجبت دنيا وراحت تردد :

بوصى يعنى انظرى .. لقد درست أن كلمة قبل بالعامية تعنى بوسى وقبلة تعنى بوسة .. فمن أين لى فهم معناها انظر وكيف تفرقون بين انظر ، وقبل .



ورغم الصعوبة الشديدة التى كانت تقابل دنيا فى دراسة اللغة العربية العامية ، إلا أنها تعلمتها وأجادتها بل وأتقنتها .

كانت دنيا لا تنام إلا بعد أن تطمئن على قردها الصغير الشقى — كوكى — الذى يؤنسها .. كان رفيقها إذا جلست فى الشرفة أسرع وسبقها ، وإذا دخلت المطبخ سبقها على المنضدة ليناولها الأشياء ..

كانت قبل خروجها تقبله بعد أن تنبه عليه ألا يقوم بأى أفعال شقية ، وتوصى المربية برعايته ..

فقد كان الشئ الوحيد الذى نقلته معها من روما هو كوكى الصغير ، صديقها .



ويوماً تأخرت دنيا أثناء عملها ، فدخلت أشجان مسرعة نحو غرفتها فلم تجدها ولم تجد كوكى كذلك ، اندهشت وراحت تسائل أمها بلهجة رسمية :

ــ أين كوكى يا أمى ؟

***

الفصل الخامس

"المرأة الجميلة ليست دائما فاضلـة والمـرأة الفاضلة دائما جميلة ".

مثل فرعونى



وراحا يبحثان عنه ، فى كل مكان فى البيت ، وفى الحديقة المحيطة بالبيت ، إلا أنهما فشلا فى العثور عليه.

وإذا بكوكى الصغير فى الفيلا المجاورة يتسلل عبر نافذة المطبخ سائراً على " المواسير الخلفية " مخازن المياه .. لينقل عبرها البطاطس والطماطم ، الواحدة تلو الأخرى ، فيمسك واحدة بيد يحتضنها والأخرى يتسلق بها عبر "المواسير" والنافذة ثم يقفز عبر الأشجار ثم يتسلق لمطبخ البيت ليضعها على منضدة تجهيز الطعام فى مطبخ الأسرة .



دخلت مربية البيت بغتة ، فوجدت كوكى قرد الجيران يسرق خضراوتهم وينقلها لهم ، فأمسكته المربية فراح يصرخ صرخات متتالية .

سمعت صوته عندئذ أشجان .. فأسرعت نحو مصدر الصوت ، فتقابلت والمربية فى حديقتهم أثناء طريقها إليهم .

فأسرعت أشجان تجتذبه فسرعان ما تعلق بها .. فقالت لها المربية :

ــ انظرى ماذا فعل ؟

راحت تهدهده أشجان متسائلة :

ــ ماذا فعلت أيها الشقى ؟

قالت مربية الجيران :

ــ تصورى ! لقد سرق الخضراوات لينقلها إليكم .

ــ عفواً ومعذرة .. فهيا معى .. لتتسلمى ما نقله .

ودخلا المطبخ فوجدت أشجان كثيراً من الطماطم والبطاطس فاندهشت قائلة موجهة اللوم له :



ــ كيف تسنى لك نقل كل هذا العدد الكثير من عندهم ؟
عندما تأتى دنيا ستعرف كيف تؤدبك على هذه الفعلة الشنعاء.
وحملت المربية أشياءها ، وخرجت .

واندفعت الأم تثور غاضبة لهذه التصرفات .

لم تعر أشجان أى اهتمام لهذه الثورة ، حيث إنه لا داعى لكل هذه الثورة والغضب . وجلست مع كوكى تلاعبه وتلاطفه فهى رقيقة ، وديعة ، تخاطب الأزهار ، تصادق الطيور ، تحدث المطر .. كانت شديدة الإعجاب والحب به .. فهو يمثل لها اللعبة المثيرة ، الحية ، التى لم تبادلها الملاطفة واللعب فقط ، بل والحب أيضاً .

فتحت أشجان الإنترنت بحثاً عن أى معلومات عن أنتينورى الإيطالى وسيرته الذاتية .. وعندما وصلت إليه قرأت :

ــ يبلغ من العمر الثامنة بعد الخمسين . متزوج ويعمل مع زوجته فى مستشفى الاستنساخ والولادة. يلقب بأبو الأطفال



المستحيلين . يعالج الحالات المستعصية للعقم ، لدرجة أنه لديه مريضة أمكنها الحمل ، بعد تجاوزها الستين من عمرها .. وذلك باستخدام وسائله المنفردة فى علاج العقم ، وسن اليأس وغيرها من الحالات المستعصية .

ـــ له محاولات فى استنساخ البشر تسببت فى تقديمه للمحاكمة عدة مرات ، وأغلق مستشفياه الخاص ، بل وتم طرده من الجامعة الإيطالية (سابينسا) وتعنى المعرفة .

شعرت أشجان بالخذلان أمام هذه المعلومات التى لم يكذب كل من والديها فى قولها .. فلم يلجأ إليه عبثاً ولهواً .. واستعادت ثقتها من جديد بأمها .. وصدقت أقوالها بعد أن ثبت عدم صحة اتهامها وإدانتها وهواجسها الشيطانية .

وعادت فرحة ، مستبشرة ، مشرقة من جديد . خرجا سوياً من المدرسة كالمعتاد ، فلا يتركها أدهم إلا بعد الاطمئنان على وصولها وصعودها أمامه للبيت . كانا يجلسان دائماً بين الأشجار فى أوسع بستان بالقرب من بيتها.. كانت

الأشجار والشجيرات الصغيرة المحيطة بالأزهار التى تفصلها عن الطريق تشبهها بالحديقة الجميلة . فجلست أسفل الشجرة التى شهدت عهودهما وأحاديثهما وحبهما .. قائلة :

ـــ لماذا يا أدهم عندما نصل ونجلس عند هذه الشجرة أشعر بالراحة لدرجة أنى أشعر بأن كل شئ هنا نقى ، جميل ، بديع .. حتى الهواء هنا غير ملوث وكأن كل شئ مريح وهادئ وجميل ؟ داعبها قائلاً : ـــ أتعرفين لماذا ؟

ـــ طبعاً أعرف .

ـــ أشك فى ذلك .

قالت بثقة :

ـــ ولكن ليس لدى شك فى أن حبك هو الذى يعطينى هذا الإحساس بالراحة والهدوء .

ـــ ألم أقل لكِ إننى اشك فى معرفتكِ سبب تلك الراحة. بغضب تقول :

ـــ ألديك سبب آخر غير ذلك ؟



ـــ بالطبع لدى .. فهنا يا حبيبتى .. وأشار بيده على الشجيرات المحيطة بالحديقة .. شجيرات " النيم " هذه الشجيرات هى التى تعطيكِ هذا الهدوء وتلك الراحة . لأنها تمتص أول أكسيد الكربون والرصاص وأكسيد الهيدروجين من الهواء ، بالإضافة إلى إنها تطرد الحشرات الضارة مثل الذباب ، والبعوض وتقضى عليها ، وتستطيع امتصاص الغازات الضارة من مسافة تتراوح بين ٣,٥ إلى ٥ أمتار ، وتطرد الحشرات على مسافة تبلغ ٢٠ متراً. فهى تحارب التلوث . قالت وهى تحاول أن تمكر به متظاهرة بالثورة والغضب : ـــ واأسفاه .. !! لقد ظننت حبك هو الذى يعطينى هذه الراحة وليست شجيرات النيم .

فأحتضن أدهم كفها الدقيق وأناملها الرقيقة الجميلة بين كفيه ووضعها على صدره وهو يقول : ـــ لا تغضبى هكذا يا حبيبتى .. لقد حاولت مداعبتك لا أكثر من ذلك .

ـــ أنا لا يمكن ، بل من المستحيل أن أغضب منك



أنت يا أدهم . فأنت لا تعرف قدر سعادتى وأنا أراك تعرف كل شئ أو على الأقل كل ما يهمك وما يحيط بك ، بدقة ، وعناية ، وثقة متناهية .. فأنا سعيدة بك جداً يا أدهم .

فأخرج حافظة أوراق من حقيبته المدرسية وقال لها وهو يتكئ بظهره على جذع الشجرة :

ـ اسمعى يا حبيبتى آخر ما كتبت .

ـ كلا .. لا تقل آخر يا أدهم ، بل قل أحدث ما كتبت .. لأنه ليس هناك آخر لما تكتب .. هيا أقرأ. وبمجرد أن أخرج أدهم أوراقه المطوية التى يقرأ منها خطفتها منه قائلة :

ـ كيف لا تتذكر ما تكتبه من الشعر ؟ أليست أشعارك أنت ؟ هيا قل من ذاكرتك إن استطعت ذلك ؟

وراح أدهم يردد عليها قصيدته :

أراكِ فتحلو لدى الحيـــاة *** ويملأ نفسى صباح الأمل
وتنمو بصدرى ورود عذاب *** وتحنو على قلبى المشتعل
ويفتننى سحر تلك الشفاه *** ترفرف من حولهن القبل



فتخطو أناشيد قلبى تغـــــرد *** كأنى أصبحت فوق البشــــر*

كان يتحدث .. فتمسك الدنيا كلها من حولها عن الكلام ، وتغمض عينيها لأقصى ما تستطيع .. وكأنها فى سبات عميق ، لحلم جميل ، لا تريد أن يوقظها منه أحد.

وهكذا .. كانت الأيام تجرى بسرعة .. كالأمواج .. اليوم يغالبه آخر فلا يشعران بالزمن .. لكن بقدر ما نسعد فى الحياة كان لابد من دفع ضريبة هذه السعادة ، وكأنه دين، ولابد من تسديده لها .

فنحن على الأرض .. مازلنا فوق الأرض .. ولا توجد جنة فوق هذه الأرض .. قد نعيش بعضاً من الوقت فى سعادة .. ولكن ..!!

سرعان ما تعود الدنيا ، كعادتها .. فهى دنيا وأرض وحياة ..وكبد .. وخلق الإنسان فيها ليكابد ، ويصارع من أجل الحياة .

---

* أبو القاسم الشابى.



فالدنيا سجن.. سّجن فيها آدم عقاباً لمعصيته ..!

فكيف سينعم أبناؤه وأحفاده بهذا العقاب ليستطيبوا سجنها؟

وهل يوجد فى السجن سعادة أو جنة ما ؟

ولكن ..!!

يوجد فيها من يستطيب هذا العناء ، وذلك العذاب .. وهو بلا شك .. الحكيم منا .. من يفعل ذلك .

***

وكبرت أشجان .. وكبر معها أدهم .. وكبر الحب بينهما ، عندما يلتقيان كان يجمعهما كل شئ ، والرأى الواحد فلا يجد أى منهما معاناة فى إقناع الآخر بوجهة نظره ، وكل ما يقوله أدهم هى مقتنعة به ، وكل ما ترغبه أشجان يحققه لها أدهم . وماذا ترغب فتاة تتفتح زهورها على أيدى حبيبها الصادق الأمين . وغدا يرتشفان من رحيق الحب ما يجمعهما على ثمار المستقبل حتى كادا يقتربان ، يتهامسان ، يعشقان . وكبر بينهما الحلم الجميل ، ولم يكبر هذا الحلم الصغير معهما وحسب .. وإنما كبرت معه ملامحها ، أعضاؤها ، حتى بدت تخجل من شكلها .



فجأة ..!

أصبحت تنمو نمواً غير طبيعى ، ولا معهود من قبل ، حتى باتت تختفى عن العيون ، وتتوارى خجلاً ، وحياء من ضخامتها . واختفت عن العيون .

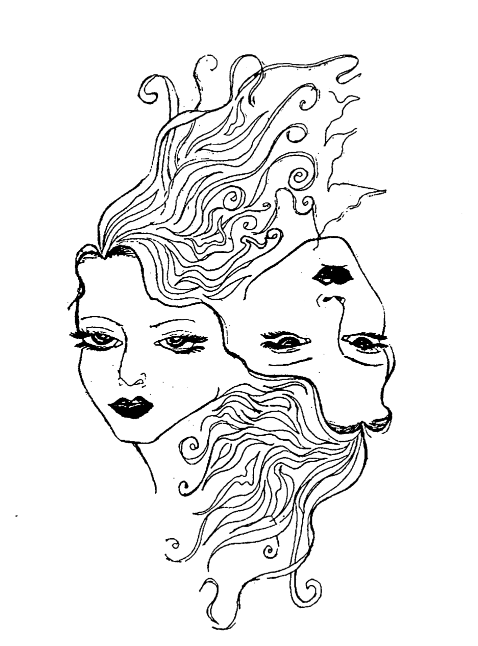
الملابس ..! لا تستطيع استعمالها .. فقد ضاقت عليها.

الأحذية ..! صغرت عليها ، وكانت حياكة الملابس الجديدة تجهدها .. لقد أصبحت كل شهر تقريباً تغير ملابسها وأحذيتها . وعندما بلغ وزنها خمسة وتسعين كيلو جراماً بدأت تطيل الوقوف أمام المرآة . لقد تبدلت ملامحها ..!!

الجميع يتهمونها بكثرة الأكل .. ولم تعد بقادرة على الرقص فى حفلات المدرسة .. لم تستطع الجرى .

أصبحت ثقيلة ..! ورغم ثقلها هذا .. إلا أنها كانت رقيقة ، هادئة ، وديعة. أصبحت بدينة .. ! ولكنها .. كانت تعرف إلى درجة الإجادة كيف تخفى بدانتها البارزة .. بل تعرف بمهارتها فى اختيار ثيابها كيف تجعل من هذه البدانة شيئاً فاتناً ، تحسدها عليه أترابها .







رغم بدانتها تلك إلا أن وجهها أحتفظ بتلك النضارة والدعة اللتين تحتكرهما وجوه العذارى والأطفال وذلك لعدم إسرافها فى العبث باستخدام أدوات التجميل الحديثة كما تسرف فى ذلك أترابها .. فظلت رغم ضخامتها إلا أنها تحمل وجه طفلة بريئة رقيقة الملامح . ولكنها بدأت تبتعد عن زميلاتها اللاتى كثيراً ما كن يتضاحكن ويسخرن منها . إلا إنساناً واحداً . لم تتغير معاملته لها .. لم يسألها عن أسباب تلك السمنة .. ولا حتى مجرد التلميح بأنها سمنت . كان يخاف على مشاعرها أكثر مما يخاف على نفسه . الجميع يتغامزون ، يتهامسون ، يتساءلون عما أصابها ، فى شهور معدودة بلغ وزنها وحجمها هذا القدر الهائل من الوزن .. كان شيئاً غريباً غير مألوف .

جلس معها أدهم كعادته تحت الشجرة الكبيرة الضخمة التى تسمع تنهداتهما ، وأشواقهما ، وتظلهما بفروعها .



ـــ أتسمعين يا حبيبتى قصيدتى التى ستنشر فى مجلة المدرسة ؟

تأملته أشجان ..!

لماذا يسألها الجميع ، ويقتحمونها ، ويجرحونها وهو يبدو غير مكترث ببدانتها ــ سمنتها ــ وتغيرها وتحولها ، ومشكلتها .

ربما كان متعمداً تجاهل ما حل بها ، فمضى يقول بصوت ملؤه الحماس قصيدة إرادة الحياة :

إذاالشعب يوماً أراد الحياة *** فلابد أن يستجيب القدر
ولابد لليل أن ينجلى *** ولابد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياة *** تبخر فى جوها ، واندثر
إذا ما طمحت إلى غاية *** ركبت المنى، ونسيت الحــذر*

***

* أبو القاسم الشابى



لم تعلق أشجان على ما قاله من أشعار .. وكيف تعلق على كلماته وهى لم تسمعها بعد .. فقد كانت شاحبة واجمة من فرط تجاهله لها. تلعثمت وهى تسأله :

ـــ أدهم لماذا تتجاهلنى ؟ ألا يهمك أمرى ؟

ـــ أنا .. ! أنا يا أشجان أتجاهلك ؟ كيف تفكرين هكذا ؟ كيف أهون عليك فتظلمينني هذا الظلم البين ؟

ـــ أدهم ..! ألا ترى أن هناك تغييراً قد حدث لى ؟ أليس هناك ما يلفت ولفت نظرك وبصرك بالفعل لما حدث لى

ـــ أشجان .. أنا أحبك أنتِ طويلة كنتِ أم قصيرة . سمينة أو نحيفة ، حلوة أو غير ذلك ، فأنا أحبك أنتِ ولن أحب سواكِ وأراكِ جميلة .. رقيقة دائماً . وفى كل الأحوال ، والأوضاع ، والأعمار .. أحبكِ فعيناى لا تبصر سواكِ .

ـــ ولكننى يا أدهم أشعر بأننى مريضة .. فأنا خائفة ، ليس ما بى هو السمنة ولكنه ، تضخم . اننى أخاف الآن النظر فى المرآة .



وكل يوم تّجرى على التحاليل والفحوص والاختبارات ، والدهشة ، والتعجب فى نظرات الأطباء دون جدوى . وانبعثت كلماتها متقطعة وهى تقول :

ـــ إنى خائفة يا أدهم .. خائفة .

وأجهشت بالبكاء ولأول مرة يضمها أدهم بين ذراعيه وقلبه يرتجف من مجهول ، غامض يجهلاته .

***

كانت الغيرة تملأ زميلات أشجان من جمالها وفتنتها ورشاقتها ورقتها ، فلما أصابها ما أصيبت به من البداية تبدل حقدهن وغيرتهن إلى سخرية وشماتة .

فبينما كانت أشجان تسير وحدها فى أحد بساتين المدرسة أثناء العطلة الفسحة المدرسية كانت على غير عادتها . فلم تعد تخاطب الزهور وتحاكيها ، حتى الزهور نفسها كانت ذابلة وكأنها تشارك أشجان آلامها وتشعر بأحزانها .



تغامزن الفتيات وتهامسن وجرين حولها ليخرجنها من البستان .. وشدت اثنتان منهن الحبل ودفعت الأخريات أشجان وسط الحبل .. هيا يا أشجان ورحن ينشدن :

ــ نطى نطة يا دبدوبة ها .. ها .. ها .. وكمان نطة .. ها .. ها .. ها.

فقد كن يحسدنها على رقصاتها الرشيقة .أخفت أشجان وجهها بين كفيها وهى تبكى .. فأسرع أدهم لينقذها من هذا الموقف ويجذبها من يدها ويصرخ فى وجوههن :

ــ ماذا دهاكن ؟ يا رفيقات السوء والسخافات .. ؟ يا شيطانات الإنس .

أجهشت أشجان بالبكاء وهى تسير معه .. وراح أدهم طوال الطريق يهدئها ، ويدللها ، ويلاطفها . ورغم أنها كانت دائماً سريعة الاستجابة له ، فكانت سريعة الابتسام من كلمتين اثنتين .. إلا أنها تغيرت اليوم ، على غير العادة ، حتى الابتسامة كان من الصعب عليها أن تجد مسلكاً إلى ثغرها .



فهو الوحيد فى هذه الدنيا الذى يستطيع ترويضها وتهدئتها وإسعادها بعد دنيا مرضعتها . فكم هى لطيفة .. وديعة .. لا تجهده فى ملاطفتها ، إلا أنه أصبح من العسير عليها الآن أن تستجيب لملاطفته ، حاولت أن تبدو هادئة أمامه ، ولكنها ليست بهادئة ، بل واجمة .

تفكر ..!! هل بدأت معركتها الآن مع الحياة ؟ وكيف بمقدروها .. ووسعها ترويض ذاتها على مقابلة ، وتحمل مثل هذه الأمور من مقالب ومساخر ستتعرض لها من الآن فصاعداً .. ومن حين لآخر ؟ .

دخلت أشجان إلى البيت . ما بال هذا الحزن الذى يكسو ملامحهم ؟ ماذا بهم ؟ بل ماذا أصابهم ؟ هل من الممكن أن تتبدل كل الأمور هكذا فجأة ؟ فى المدرسة .. سخرية ! فى البيت .. أحزان !! فزعت أمها لرؤيتها تعود مبكراً على غير عادتها وقفزت من فوق مقعدها أمام الكمبيوتر بعد أن أسرعت بإغلاقه . واضطربت وهى تدفع أشجان بعيداً عن



موضع جلوسها. لم تكن أشجان فتاة عنيدة متجاوزة فى ألفاظها وحدودها ، بل كانت دائماً وديعة مطيعة تصغى لمن يكبرها وتنفذ كل ما تؤمر به من أفراد عائلتها طواعية وحباً واحتراماً بل وتملك ذاتها وتسيطر على انفعالاتها إذا لزم الأمر وأستدعى لذلك . ولكنها أبصرت ملفاً وهى تنظر خلفها مكتوب عليه عنوان كبير باسمها .. وقعت منه صورة بغتة وهى تحاول اخفاءه عن عيونها . كانت صورتها .. وهى بهذا الشكل ، والمنظر المفزع ، السمين . ومكتوب عليها تاريخ ستة أشهر التى راحت فيها تسمن وتتضخم حتى بلغت هذا الوزن الضخم . وتقابلت نظراتهما . نظرة أم تخفى سراً مجهولاً عن ابنتها الوحيدة ونظرة شك من ابنة تبحث عن سر حياتها وأى نجاة تتعلق بها لتفك به لغز حياتها بل وسر أسرتها .

فقالت لها أشجان بذعر :

ـــ إلى من ترسلين أحداث حياتى ؟ من تخاطبين عبر الكمبيوتر ليتتبع كل أخبارى ؟ من يهمه أمرى؟



وبسرعة استطاعت الأم أن تجد مخرجاً من هذا المأزق فقالت :

ـ إنه انتينورى يا حبيبتى .. أبعث له حالتك ربما يجد علاجاً لكِ وتشفين فتعودين مثلما كنتِ .

ـ أنتينورى طبيب نساء وولادة وحالات عقم فما شأنه بالهرمونات والغدد والتضخم والسمنة ؟

***

الفصل السادس

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ،
وتأتى على قدر الكرام المكارم ..
وتعظم فى عين الصغير صغارها ،
وتصغر فى عين العظيم العظائـــــم

المتنبى .

تلعثمت .. لكنها أجابت :

ـ هو يتابع جميع حالات ولاداته .. خاصة اللاتى كن يعانين من عقم أو صعوبات فى الولادة مثل حالتى .. ويوجهها للمتخصصين فى الخارج عن طريقه .

كانت أمها تكذب بل أصبحت أمامها بارعة فى ممارسة شتى فنون الكذب .. وهذا هو الشئ الوحيد الذى لا يساورها فيه شك .. وهذا وحده كان كفيلاً بتأكيد شكوكها وظنونها .



فتلعثمها الدائم ، واضطرابها المستمر لا يدلان على حالة من القلق والحزن عليها قدر ما هو دليل على كذبها وإخفائها أمراً ما . كانت تفضحها عيونها ، وخائنة الأعين التى لا تستر ما بها.

ولكن يبدو أن شكوكها لم تنته بعد ، بل كانت تتدثر تحت شعار المجرم برئ لعدم إدانته أو لعدم كفاية الأدلة ، ورغم أنها كانت على وشك الاقتراب والاقتناع من براءتها.. إلا أنها الآن وقد تعرى سباتها تشتعل من جديد ظنونها ..!

كلا .. فلم تعد ظنوناً ، بل أصبحت يقيناً . وتوالت صرخاتها بعد أن عجزت فى السيطرة عما بداخلها من قسوة وعنف لهذه الأم :

ـــ لست أمى .. لست أمى ..

وتركتها أشجان وخرجت بعد أن طعنتها كلماتها وراحت تنزف وتسيل دماء حبها .. وها هى الآن ، تحصد ما

درسته إرضاء لغريزة الأمومة .. بعد كل ما فعلته تنهرها ابنتها بكلمات : لست أمى .. لست أمى ..!

راحت تتردد على أذنيها وتدوى برأسها فتكاد تصم أذنيها. سقطت الأم كمداً وحزناً من تلك الصفعة القاسية .. ولأول مرة تبكى بعد بكائها على طفلتها الراحلة .

كيف استطاعت ؟ بل كيف تجرأت بعد كل ما فعلته من أجلها ؟ ولكن لها المعذرة فى كل ذلك ، فهى لا تعرف كم أنفقا من مبالغ وتضحيات لخروجها وإعادتها للحياة من جديد وجلست بمفردها بعد أن أوصدت عليها باب غرفتها دون الآخرين وفتحت ملف صورها منذ ميلادها .. وحتى هذه اللطمة القوية القاسية كانت الدموع تتسابق على وجنتيها ، لقد فعلت كل شئ ، بل وقدمت كل ما تمتلك ، ولكن لم تستطع السيطرة على قلبها فهى لا تشعر بأمومتها وبنوتها لها وكأنها تمثل دورا ثقيلا لا تستطيع إتقانه ، حتى تجرأت وقالت لها جهراً وعلانية بل سفوراً وتجاوزاً .. لست أمى .



وأسندت الأم رأسها على وسادة فراشها الوثير تفكر كيف وقد تحققت كل أحلامها .. شعرت إنه كما يوجد ما يدعى بالحمل الكاذب فهناك أيضاً الأمومة الكاذبة . فهى كالأم الكاذبة ، والحمل الكاذب ، بل الأم الفاشلة ، فلم يستطع المال أن يخضع لها طفلتها وقد أعادتها للحياة . لقد فعلت المستحيل .. عاشت حياتها تحت شعار واحد : وهو أنه لا يوجد شئ أسمه المستحيل . كلا.. فالحب هو المستحيل الوحيد الذى واجهته فى هذه الدنيا .. وحب من .. ؟ طفلتها الوحيدة ..!

أغمضت عينيها رغم السيل المتدفق من عينيها حتى لا ترى خيبة أمالها .. ونتيجة إصرارها على أن تكون أما .. لقد عجزت بعد كل ما فعلت أن تنال حبها ، وتملك قلبها . فشلت فى أن تكون أما .

***



دخلت أشجان غرفتها وأوصدت دونها الباب من الداخل ، ورفضت الخروج ، بل ومنعت دخول أى شخص عليها.وقفت أمام المرآة ، تعكس المرآة صورة فتاة سمينة تنفع لتصوير إعلانات عن المأكولات ، أو تنفع للإعلان عن التحذير عن الأكل .. حتى لا تصل مثل هذه الدبة الجميلة التى عبثت السمنة والهرمونات بجمالها ، وفتنتها ، فقضت عليهما .

اقترب منها صديقها الصغير ــ القرد الشقى كوكى ــ الذى لم يخرج من غرفتها حيث كان فى انتظارها كالمعتاد ، وقف على كتفها ، فجذبته وحملته بحنان ، ثم جلست على مقعد الفوتيه تنظر إليه بصمت ، فراح يضع كفه يتحسس وجهها ، فانهالت دموعها وهى تقول ودموعها تحشرج صوتها وتقطع كلماتها :

ــ حتى أنتَ يا كوكى تشعر بتغييرى وتضخمى فتتحسس وجهى غرابة واندهاشاً .



فمسح دموعها وراح يقبلها وكأنه يواسيها فضغطت عليه بذراعيها تحتضنه وتنتحب وكان القرد كوكى يمر بكفه وأصابعه الدقيقة على شعرها الكثيف من الخلف لتهدئتها .

فنهضت أشجان لتغير رداءها فإذا به يضيق مرة أخرى عن الأمس القريب ويصغر عليها ثم جلست على فراشها تفكر .. وكوكى لا يمارس أى شقاوة أو يتشاجر مع لعبها المتحركة كالمعتاد بل ظل صامتاً حزيناً .

كم من الوقت مر عليها وهى على تلك الحال ؟ ساعات طويلة مضت دون اكتراث منها .فراحت تحدثه قائلة بعزم وإصرار :

ـــ كلا .. لا يجب الاستسلام .. أليس كذلك يا كوكى .. إنه مرض ، ولا شك فى أن لكل داء دواء ، ربما سيطول الأمر ، ولكن لكل بداية نهاية ، وما علينا إلا الصبر ، ولن أترك المدرسة ، أليس كذلك ؟



راح كوكى يداعبها ، وكأنه يفهم ما تقوله وكم كنت قاسية على أمى ، انفعلت أكثر مما يجب وكان لزاماً علىَّ ألا أعاملها هكذا ، ولكننى أشعر بأنها ليست أمى ، فعلاً يا كوكى، إننى أشعر بذلك ، لكن مرضعتى تلك الصغيرة أشعر بأمومتها وحنانها الذى يغطينى قلبى يحدثنى بأنها أمى وليست مرضعتى فقط فهى أقرب الناس إلى وأقرب إلىّ من أمى .

دقت دنيا على الباب للمرة الثالثة .. فقررت أشجان أن تفتح لها وتبدو طبيعية وكأن شيئاً لم يكن ، فهى مصابة بمرض ما ، حتى لو كان غير معروف ولكنه سيعرف ، قطعاً سيعرف . وسيأتى الوقت لعلاجها ونهضت من الفراش بصعوبة وتعثر .. فتحت الباب .. فكانت دنيا تحمل بين يديها صينية كبيرة عليها أشهى المأكولات فابتسمت أشجان وصاح كوكى مهللاً بأصابع الموز الموجودة فوق الصينية.

فجلست أشجان إرضاء لدنيا التى هرمت وشاخت حزناً عليها ، وراحت تتظاهر بابتلاع الطعام ، وتخفى



نظراتها المتكسرة عنها حتى لا تزيدها عذاباً وحزناً فوق عذابها . وطنت أشجان نفسها على تقبل تلك النائبة حتى يقضى الله فى أمرها ، ولكن ..!! هل ستنجح فى مواجهة الحياة بهذا الشكل ؟ هل ستستطيع الاستمرار فى دراستها ؟ هل ستلتحق بالجامعة ؟ هل بمقدورها ارتداء قناع من البلادة والهدوء وعدم الاكتراث واللا مبالاة ؟ وإلا ستظل تشع الكآبة حيثما تحل وتهل .. وأينما تكون ، لتتحول نظرات الإعجاب فيمن حولها إلى شفقة وحزن وعذاب . هل بوسعها التمثيل وإخفاء ما بها ؟

لقد كان أكثر ما يبدعها من جمال هو فطرتها ، صدقها ، حريتها ، فلم تقو يوماً على الادعاء أو النفاق أو التمثيل !ولكن آن الأوان لتضحك وهى تبكى وتصمت وقلبها يصرخ ، فلابد من رداء غير هذا الرداء . وكما تتغير ملامحها من حين لآخر فلتتغير بدورها ملابسها لتليق وتتلاءم وحجمها المتزايد باطراد ، ولابد وأن تتغير انفعالاتها



وإحساسها باليأس والخوف والقلق ، لابد وأن تبدو سعيدة كعادتها.

وإذا كان بوسعها تحقيق كل ذلك ؟ فإلى متى ؟ ولم يمض وقت طويل إلا وتظاهرت دنيا بالنعاس فجذبت كوكى من ذراعه عله لا يزعجها ، فحملته أشجان قائلة :

ــ دعيه معى ، فهو يخفف عنى كثيراً ويمنعنى من التفكير ، أتركيه يرقد بجوارى اليوم ، فأنا بحاجة إليه .

ــ ولست بحاجة لى ؟

ــ أنا دائمة بحاجة إليك ، فأنتِ أمى الصغيرة وصديقتى الوحيدة ، وأرجوكِ لا تحزنى هكذا لحالتى فكلى آمال فى العلاج وكل شئ سيعود على ما يرام ، فاطمئنى يا أمى الصغيرة.

ــ طاب مساؤكِ يا حبيبتى وقرة عينى . وقبلتها ، وأسرعت للخروج وهى تخفى دموعها فأعادتها أشجان إليها وهى تقول :



ـــ لماذا لا تنادينى بإش إش ؟ من الآن فصاعداً لا تنادينى سوى بـــ إش إش ، أرجوك ، فهذا يروق لى كثيراً .

ـــ أجل يا حبيبتى .

ـــ كلا ، أجل .. يا إش إش .

ـــ أجل يا إش إش .

وعبثاً حاولت أشجان النوم دون جدوى .. كاد القلق يأكلها والفكر يلتهمها.

وكانت دنيا تتقلب فى فراشها على جمر من الأتون المستعر وهى ترى قرة عينها تضيع منها هكذا وهى مكتوفة اليدين حائرة الفكر لا حول لها ولا قوة إلا بالله .

***

يجلس أدهم ساهراً ، لم يغمض له جفن وهو يبعث رسائل حالتها إلى كبار أطباء العالم فلن يهدأ له بال ويستقر له فكر إلا بعد علاجها ، وكله أمل فى علاجها . ينتظرها ليقوم كعادته بتوصيلها للمدرسة .

ـــ أدهم ماذا بك ؟ هل آكل طعامك .. لتمسى نحيفاً شاحباً وأصبح سمينة غليظة ؟ ماذا أصابك ؟ بل ماذا دهاك ؟ لماذا تشحب هكذا يوماً عن يوم ؟ أخشى أن تصبح قريباً خيالاً وشبحاً متحركاً فلا أستطيع رؤياك إلا من خلال صوتك ؟

ـــ لا تنشغلى بأمرى يا أشجان ؟ فأنا على ما يرام ، المهم أنتِ .. أنتِ يا حبيبتى .

ابتسمت قائلة وهى تجاهد وتصارع من أجل أن تتظاهر بالابتسام .

ـــ وأنا أيضا على ما يرام .. ألا تصدقنى ؟!

يومها وقف زملاء الفصل خلف الباب لا يقوون على فتحه ، وحاول البعض كسره واقتحامه فذهب احدهم ليحضر مطرقة أو أية آلة حديدية لفتحه ، بينما اقتربت أشجان من الباب وبضغطة واحدة من كتفها لم يفتح الباب وحسب بل خلع تماماً من الجدار فأمسكت به وأسندته على الجدار . سألت المعلمة : ـــ من خلع هذا الباب ؟

ضحك الجميع وتفوه البعض يقول :

ــ "دبدوبة السمينة " .

وقفت أشجان .. فبدت طويلة جداً أصبحت أطول من فى المدرسة وأعرضهم وأثقلهم وزناً وقالت بصمود :

ــ أنا يا أبلة .

ــ لماذا يا أشجان خلعت الباب هكذا ؟

ــ أنا لم أقصد خلعه يا أبلة ولكننى أردت فتحه فقط فلم يتحمل وخلع فى يدى لضعفه .

ضحك الجميع . فاندفعت أشجان كالسهم منطلقة بسرعة من المدرسة تاركة أدواتها وحقيبتها .. ووصلت إلى شجرتها المفضلة وجلست بمفردها تبكى وتنتحب وراحت الشجرة تظلها بفروعها العريضة والمليئة بالأوراق الخضراء. كانت أوراقها تحدثها ولكن ما بالها اليوم لا تسمع صوت غير صوت بكائها . لم يكن بوسعها تحمل كل هذا الحمل الثقيل وحدها . وتمنت لو



كان أدهم بجوارها الآن لمسح دموعها وخفف عنها من وطأة تلك الأحداث التى باتت تتعرض لها .. كانت أقوى وأشد من احتمالها فلم تستطع أن تألفها أو تتبلد تجاهها . ولماذا أدهم وحده الذى قدر له أن يحمل معها هذا العذاب ؟ لماذا أدهم يكون نصيبه من الدنيا فتاة مريضة ومصابة بعلة من العلل المستعصية والتى لا علاج لها حتى الآن ولا أمل فيه ؟ لماذا تعذبه بوجودها ورؤيتها هكذا على هذه الحال ؟

وصعدت إلى البيت .. ورفضت الخروج من البيت للتحاليل والفحص والكشف ورفضت كل شئ وقررت عدم العودة للمدرسة . وازدادت حالتها سوءاً فراحت تتورم وتتضخم بمرور الوقت .. وفشلت محاولات أدهم المستمرة فى مقابلتها ورؤيتها.

فجأة حُرم منها دون سابق إنذار.

كيف يستطيع ذلك .. وقد كان لا يمر عليه يوم دون رؤياها ؟ فلم يوطن نفسه على ذلك .. !



كيف هان عليها حرمانه منها وهى تعرف قدر حبه لها ؟ كانت لا تمر ساعة من الزمن إلا ويسأل عنها أو يمر ببيتها طمعاً فى رؤياها .

ولكن باءت كل محاولاته بالفشل . كانت كل يوم تزداد وزناً وطولاً وعرضاً ..! فى أشهر قليلة أصبحت تبلغ من الطول مترين ونصف المتر وتبلغ من الوزن ما يقرب مائتى وخمسين كيلو جراماً .

***

فجأة أصبحت تنمو نموا غير طبيعى ولا معهود من قبل .. حتى باتت تختفى عن العيون لتتوارى خجلا وحياء من ضخامتها .. واختفت عن العيون. .

وجاءت معركة الأم ضحية من جديد وقد ظنت وباطلاً ظنت أن الحياة تركتها وشأنها لتنعم بكل هذا النعيم دون رقيب أو عتيد من زبانية الدنيا وأعدائها .



بعد كل ما قدمته لها من عطاءات ومنح .. وآن الأوان لتسديد ضريبة ما سلبت .. لتجرى خلف الأطباء فى كل مكان ، يميناً وشمالاً ، بحثا عن طريقة لوقف هذا النمو.

أفزعها تصريح الأطباء بأن هناك خللاً جينياً وراثياً فى هرمون النمو وأن هذا الاضطراب الهرمونى سيستمر حتى الموت وستتضخم الفتاة ولكنها لن تعيش طويلاً ثم توالت اللطمات الواحدة تلو الأخرى .

***

وفجأة ..!

فتحت الأم الباب لتتسلم مذكرة بحكم قضائى .. نظرت عيناها تقرأ هذا الحكم فصرخت صرخة مدوية أفزعت كل من فى البيت وصرخت بفزع وهى تقول :

مستحيل .. مستحيل ..!

حكمت المحكمة بمصادرة أشجان لمعرفة أسباب تضخمها ووضعها تحت الحراسة والعناية المركزة حفاظاً



على سلامتها وضمها تحت رعاية الأشراف الطبى للحالات المستعصية والشاذة أو غير المألوفة .

جاءها الحكم بمصادرة الطفلة المستحيلة ووضعها تحت العناية الطبية والفحص المستمر .

ونُزعت أشجان بقوة القانون لإجراء التجارب عليها وهيأت المستشفى المكان الملائم لهذه الطفلة الضخمة غير الطبيعية والتى بلغ طولها أربعة أمتار وتزن ثلاثة أطنان وحبسوها فى ردهة واسعة .

أجل ..!

كان جناحاً وارفاً ترفاً بالغ العناية إلا أنه كان بمثابة زنزانة ..

ضاقت عليها وإن رحبت . فقد كانت تشعر رغم اتساع الجناح الذى تقيم فيه إلا أنه ضيق وسيطبق عليها .



وكان أدهم رغم أنه طليق فى الدنيا إلا أنه حبيس ، يشعر أن الدنيا قبر بما وسعت لعدم وجودها معه ، فلم يعد يتذوق فيها أى شئ .

حبسوها كالحيوان ..! كالوحش الضارى ..! فهم يتوقعون انها ستتوحش وسيصعب السيطرة عليها .

وتبدل كل شئ ..

شكلها الجميل ..

ملامحها الدقيقة ..

أخذت فى الغلظة ..

أصبحت مخيفة ، مرعبة ، يظنها الرائى غولاً متوحشاً من صنع الخيال. حيواناً من حيوانات الأساطير المتوحشة ..!



فكل ما فيها تحول ، وتبدل ، وتغير إلا موضع واحد هو قلبها .. قلبها ..!

الذى ظل وحده يعانى مأساة من صنع الآخرين .

***



الفصل السابع

الحكمة إذا اقبلت خدمت الشهوات العقول،
وإذا أدبرت خدمت العقول الشهوات .

سقراط.

أكبر حيوان تجارب فى العالم ..!

وتبدل كل شئ ..!

لم يعد شكلها جميلاً ..

وبات أدهم يتابع أخبارها عن وسائل الإعلام المختلفة التى راحت تتناول تفاصيل حياتها. وظلت حبيسة زنزانة ، ضخمة .. كالوحش المفترس ..!

رهينة الحياة ..! تتمنى .. حيث لا يجدى التمنى .. الخروج من سجن الحياة وهل لها من سبيل فى ذلك ؟ وماذا تفعل؟



وقد ظنت أنها فلتت من ظلمة الرحم إلى ظلمة الحياة!

أصبحت وحيدة .. كل يوم يأتى غرباء .. زوار .. علماء .. صحفيون .. مذيعون .. مصورون .. من كافة أنحاء العالم .. لكنها ترفض .. تأبى .. تصمت . ورغم ذلك يجبرونها على اللقاءات . يطعمونها بالعقاقير .. الجميع أتى هنا لفحصها ..

أصبحت فُرجة .. يتطلع إليها الآخرون بهلع وفزع وفضول .. وكانت أخبارها لدى أدهم تزيده عذابا فوق عذابه . لم يكن قدراً وحسب .. بل كان الجحيم بعينه ، هذا الحكم القاسى على كل من فى البيت .

لطمة قوية ..! أطاحت برؤوسهم جميعاً .. و بأدهم الذى بات يعرف أخبارها من كافة وسائل الأعلام من صحف ومجلات وإذاعة وتليفزيون.

الغريب إنهم يطلقون عليها (البنت المتوحشة) كان قلبه ينفطر تمزقاً ، واحتراقاً عند قراءته أخبارها تلك وما يذاع عنها ويقال ، ويشاع .



ترك هو الآخر مدرسته .

تدخل أمه غرفته فتقول له :

ـــ إلى متى يا بنى ستظل على هذه الحال ؟ لقد أهملت دروسك ومدرستك وترفض الطعام زاهداً فى كل شئ وتجلس بمفردك إما ذاهباً حيث لا أدرى وإما جالساً تبحث عن عناوين لأطباء مجهولين .. متى تفيق من هذيانك هذا ؟

يخفى أدهم وجهه عنها وهو يحدثها ويخفى الصحف العديدة وصورها المفزعة التى تتصدرها عن ناظرى أمه فتقول له بشفقة وعطف :

ـــ يا بنى هذا أمر الله ..

يجب ألا نفقدكما فى وقت واحد .. وكفانا فجيعة ومصيبة واحدة فى أشجان .. فَنَجَ نفسك من هذه الظلمة .. وعد إلى حالتك الطبيعية ، عسى الله أن يشفيها ، فتجدك قوياً .. صلباً ، لا هزيلاً ضعيفاً ، فاشلاً ؟



ـ كلا يا أمى .. لن أستطيع .. فنحن روح واحدة فى جسدين .. وإذا حدث لها أى مكروه فلابد أنا الآخر ملاقيه .. ودعينى وشأنى ، فلم يعد لى فى الدنيا شئ بعدها .

***

يجلس أدهم وحده تحت ظلال شجرتهما الوارفة الظلال التى يشكو إليها حاجته ، وراح يتذكر أول مرة حين ألقت أشجان بنفسها بين ذراعيه وقتها ملأه الإحساس بزلزال يهز الأرض من تحت قدميه .

لكن ..!!

مستحيل ألا يكون لمرضها دواء . فلم يخلق الله داء إلا وخلق له دواء . والله يعلم كم أنا بحاجة إليها .. وكم سيشفق بى ويرحمنى ويعيدها إلى ، فأنا بدونها لست شيئاً ، أى شئ . وكانت قسوة الحرمان منها وشدة الألم والحزن من التفكير فى المصير الحتمى الذى ينتظره بدونها يجعله يأمل ويتعلق بأذياله أشد التعلق . فالأمل هو المعين الوحيد لكشف



بلوى ، ونوائب الدهر التى تصيبنا . واستمر عزمه ، ومحاولاته المتعثرة فى لقائها ، لا يكل ، لا يهدأ ، لا يستريح. فلن تهدأ حالته إلا برؤياها . ما أصعب ما هو فيه ..!

لقد جاء الوقت الذى يتمنى فيه لو ينعم الله عليه برؤياها ، مجرد رؤياها .. لعلم رضاه عليه . فمجرد رؤياها أصبح حلماً من أحلامه .. بل الحلم الوحيد الذى بات يصلى من أجله .

كيف حدث كل ذلك وهو رفيق حياتها الذى لم يمر يوم فى حياته إلا وكان يراها فيه .. ليصبح من العسير عليه الآن أن يجد سبيلاً إليها . ولكنه حتماً سيراها .. فرحمة الله بحالته ستتيح له فرصة لقائها ليعيد إليه روحه وحياته من جديد .

***

أفزعه منظرها ورؤيتها فى التليفزيون وهى تغمض عينيها .. رأى شكلها وراح قلبه يرتجف وهو يسمع أنباءها



بالتفصيل .. الطفلة المستحيلة .. تتحول إلى كائن متوحش من الصعب ترويضه .

الطفلة المتوحشة .. ترفض الطعام ، وتمتنع عن الكلام . ولا تنظر إلى أحد .. وكان بوسعها لو تستطيع ، لامتنعت عن الحياة كلها ، بكل ما فيها ، ما ترددت لحظة واحدة فى ذلك .

وظلت أشجان حبيسة تلك الزنزانة .. المكيفة ، الهائلة ، رغم أن كل ما فيها وثير إلا أنه سجن . لا تعرف قدر ضخامتها وهولها .. إلا بدخول الآخرين عليها. هل هى سجينة الجسد .. أم سجينة تلك الجدران ؟ فلا نافذة تطل منها على الحياة ولا تليفزيون ولا راديو ولا صحف ولا كتب ولا شجر . زنزانة هى .. ولا ريب فى ذلك حبيسة الجدران الأربعة .

على أى ذنب تعاقب .. ؟ وهل انتقلت للآخرة دون أن تدرى ؟ ربما حدث ذلك .. ولم لا .. لكنها لم تمت بعد ولم



تبعث من جديد ..! كلا .. فما حدث هو إنها بالفعل فى عالم آخر غير ذاك العالم الذى عرفته ..!

عالم .. لا رحمة فيه ، ولا إنسانية .

هو الجحيم بعينه ..

لكن ..!

على أى ذنب تعاقب .. مثل هذا العقاب ؟ ظلت حبيسة كالوحش الضارى ، المفترس الذى يطعمونه فى أوقات محددة .. رهينة الحياة وتتمنى حيث لا يجدى التمنى .. الخروج من سجن الحياة وهل لها من سبيل فى ذلك ؟

وماذا تفعل وقد ظنت أنها فلتت من ظلمة الرحم إلى نور الحياة ؟ فإذا بها تلقى فى سجن أكبر قليلاً سجن لا تفعل فيه شيئاً سوى أنها تنفذ فيه الحكم الذى صدر عليها.

وجاء الحكم عليها وحدها.الحكم عليها بالحياة دون استئناف أو نقض .. حكما قاسياً .. فتاة محكوم عليها بالحياة!



كم كان حكماً قاسياً لا راد له ولا معين !! ما أصعب هذا الحكم وقد تم تنفيذه ..! وكيف السبيل إلى الخروج ؟ أصبحت وحيدة .. فى عالم بلا رحمة . عالم تحكمه القوة ولا سلطان للإنسانية عليه. كل يوم يأتى غرباء ..

زوار مختلفون من أنحاء العالم كافة .. ووجودها إجبارى فى لقاءاتهم رغم صمتها وعزوفها عن الجميع إلا أنها محل الانظار.

والجميع يتطلع إليها بلا رحمة .. يعرونها .. يجردونها من ثيابها بلا خجل ، ولا رحمة. أصبحت فرجة ... يستبيحها الآخرون .. ويتطلعون إليها فى جرأة ، وقسوة وبشاعة ، بلا استحياء .. تارة بدهشة وفزع ، وأخرى بفضول وتطفل غير مكترثين بعدم رغبتها فى وجودهم .

وكانت أخبارها لدى أدهم لا تزيده إلا عذاباً فوق عذابه .. ولم تمتنع أشجان عن الطعام وحسب بل وامتنعت عن الكلام أيضاً بل وعن مقابلة أى شخص كذلك ، ولكن ماذا



تفعل وقد حبسوها فى غرفة واسعة يرتفع سقفها بعيداً وكأنك تقف فى ردهة بيت من بيوت الخيال ، وكان فراشها كبيراً طويلاً ليناسب جسدها وطولها وضخامتها ، وكان باب الغرفة الواسعة حديدياً ليصعب عليها فتحه .

كان الطابق بأكمله بنى من أجلها خاصاً بها وحدها دون سائر المخلوقات لكى يتلاءم وحالتها وحسب.

وهذه الغرفة كانت بمثابة جناح فندقى ، به كافة احتياجتها ، ومستلزماتها ، لكنه عظيم البنية والتكوين والشئ الوحيد الذى يعوزه هو المرآة فقد انعدمت به أية مرايات .

فكانت أشجان تتحسس وجهها وملامحها الغليظة وتطيل النظر إلى أصابعها. لقد أصبح كل ما فيها غليظاً، مخيفاً، مرعبا، ومفزعاً.

كم اوحشها أدهم . كلا لن تراه .



ودنيا الرقيقة الوديعة وأيضاً لن تراها ، فليس بوسعها رؤية هذا الحب الكبير الذى يحملانه لها يتحول ويتبدل لشفقة وحزن وعذاب . ليس بوسعها رؤية عينى أدهم وهما تتحولان من الأمل إلى اليأس والوداع والكآبة ومن القوة للذل والهوان . وكم حاول الأطباء إقناعها بضرورة الاستمرار فى تناول الطعام حتى يتسنى لهم علاجها دون جدوى . حاولوا إجبارها على ذلك أيضاً وذهبت محاولاتهم هراء وعبثاً لا طائل منه . فاجتمعت إدارة المستشفى وقرروا إجبارها على الطعام بالمحاليل بعد تخديرها .

ما أعجب ما يحدث لها حتى الرفض والامتناع لم يصبحا من حقها فلماذا تعيش إذن ؟ أصبحت كفأر المعمل فى أيدى الباحثين والعلماء يحبسونها لإجراء التجارب العلمية عليها فتارة يحقنونها بمحاليل وعقاقير وأخرى يعلقون تلك المحاليل لتناولها رغماً عنها بعد تخديرها .



وأحياناً ينشرون حولها رائحة غريبة أصبحت تعرفها جيداً .. فهى رائحة الموت . وليتها كانت تفعل ، بل سرعان ما تكتشف أنها رائحة القبر والنوم ليبعثوها مرة أخرى من جديد فى توقيت يعلمونه جيداً لأنه حدد بعناية شديدة .

كانت تعرف وجوه الزائرين منذ لحظة وجودهم وتوافدهم عليها لاختلاف أداء الوظائف والمهمات التى يكلفون بها .. فهؤلاء الزبانية للتخدير وهؤلاء للحقن ، وآخرون للتغذية وتعليق المحاليل .

علاوة على المقاييس التى يأخذونها لها الطول ، والوزن والعرض والصور التى يلتقطونها لها .

كل شئ محدد بالمواعيد والساعات ، ومحسوب بدقة وعناية فائقة ، وكل ذلك من أجل الحفاظ على حياة أكبر حيوان معملى عرفه العالم حتى الآن . كان الحرص عليها شديدا فحالتها لا تشغل مصروحدها ، بل وتشغل العالم كله ، وترهبه كما يرهب أسامة بن لادن وأيمن الظواهرى العالم



كله .. فهى لا تقل قدراً وشأناً .. بل وأهمية عن كل هؤلاء الذين حيروا العالم .

وكل يوم يمر .. يفد إليها علماء من الشرق والغرب لتمتلئ ساحة الردهة الوثيرة الواسعة بالعديد من الصحفين والمذيعين والمصورين والعلماء من مختلف أنحاء العالم وبمختلف اللغات يتحدثون ، يتعجبون ، يتناقشون.

ولكنها الوحيدة بينهم التى لا تتحدث .. فهى لا تملك الآن شيئاً سوى الصمت . الصمت ، الذى أصبح يريحها من كل هؤلاء وهى ترى فى وجوههم ونظراتهم الفضول ، والعبث ، غير مكترثين بمشاعرها وحالتها الإنسانية بما يفعلونه بها من تجارب وفحوص وصبغات وغيرها.

المهم ..!!!

هو أن يصلوا إلى غايتهم ويحققوا طموحاتهم بالحصول على نتائج جديدة مهما كانت تلك النتائج .. المهم



هو أنه هنا توجد نتائج ما. بالقطع أية نتائج وأبحاث جديدة تعد نجاحاً لهم ، وهذا هو كل ما يشغلهم غير مكترثين أو معيرين أدنى اهتمام بالتفكير ولو قليلاً فى تلك الكائنات التى يستخدمونها فى تجاربهم كالفئران والأرانب والحشرات .

وتساءلت :

ترى هل تشعر الحيوانات بمثل ما تشعر به الآن من معاناة وقهر وعذاب ؟ أجل ..! فهى لا تزيد عنهم شأناً الآن . ومن الطبيعى أن تشعر بشعورهم الآن فقط . وحبست عن العالم لتجرى عليها التجارب دون رغبة منها فى ذلك . كرهاً وقسراً وعمداً .

ولأول مرة فى حياتها تشعر بالكراهية . وقد كانت تظن أن قلبها ليس بوسعه مكاناً لكراهية شئ ما .. فإذا بها تتحول ، تتغير ، تتبدل الآن .

ولم لا ..!!

وقد تبدل كل شئ حولها بتبدل ملامحها . فتبدل محيطها وعالمها وأصبحت تعامل معاملة حيوانات التجارب . ولم يستطع أحد مواجهة ورفض هذا الحكم الذى فرض عليهم دون أن يدروا .

كان الحارس ينظر إليها بخوف فهى فى رأيهم متوحشة لغلظة هيئتها ومنظرها ولكنها همست إليه .. هكذا خيل إليها انها تهمس :

ـ اقترب منى .. اقترب ولا تخف .. أريد أن أسألك شيئاً.

اتسعت حدقتا عينيه بنظرة يملؤها الريب والشك منها، كررت على سمعه :

ـ اقترب ، بالله .. لا تخف منى ، إنى أريد رؤية دنيا.

فاقترب منها بحرص .

***



كان أدهم يهذى باسمها هذياناً لم يره أحد من قبل .. يبدو كشبح من أشباح الظلام غير المرئية ، يمر بحيها ، يطوف بمجلسهما القديم ، عند شجرة حبهما ، كعابر سبيل ..!

تراه سقيماً ، يجر ساقيه جراً . وكأن العشق الذى أنزله الله على سماء الدنيا وأرضها .. كان لزاماً عليه حمله وحده .

عندما بلغها أمر أدهم وتغير أحواله ، وتبدله ، وهذيانه بترانيم كربه شعراً عن طريق الحارس ، سمحت له بزيارته ، فهو كل يوم يأت لمقابلتها ليعود حزيناً وحيداً ، ولكنه لم يكل ، أو يتعب ، أو يتوقف عن محاولاته فى رؤياها.. حتى أذنت بمقابلته.

وعندما بلغ أدهم ذلك الخبر شعر أن الدنيا أضيق من أن تتسع لسعادته ، كان موعده معها الساعة الثامنة مساء فكيف قضى نهاره ؟ كان يمشى كثيراً .. ليقتل الوقت ويسبق الساعات ثم عاد إلى بيته .. حاول النوم .. ولكنه فشل فلم

يغمض له جفن .. كم مضى عليه من الوقت وهو يفكر فيما سيقوله لها .. ؟

وكم عدد المرات التى نظر فيها إلى ساعته ؟ لم تكن أكثر من المرات التى توقفت فيها نظراته على ساعة الجدار ، ولكنهما لسوء حظه كانتا متفقتين عليه .. فلا تسبق إحداهما الأخرى .. بل يخالهما وقد توقفا عن السير والدوران .

وتوترت أعصابه ، واضطربت عندما فكر فى الوقت وثقله .. وقرر الخروج قبل الموعد بساعات ..

خرج يقطع الطريق أمام المستشفى ذهاباً وإياباً ..

يتعجل لقاءها ويترقبه ..

ولكن الساعات مرت كأنها أجيال .

***



الفصل الثامن

راحة الحكماء فى وجود الحق،
وراحة السفهاء فى وجود الباطل.

سقراط

وعندما فتح له الحارس بابها ، وشلت المفاجأة حركته ، ثم دخل عليها يجر ساقيه جراً ، يرفع رأسه وعينيه ، يسبقه قلبه إليها مردداً :

ـ هل سأراها الآن ؟ أحقاً سأراها ؟

وفجأة وجدته قبالتها ..

من .. ؟ أدهم ..!! كلا .. !

لم يكن هو ..

بل كان شبحاً متحركاً.. من شدة قلقه وحزنه عليها ..



كان شديد الشحوب

بل كان يبدو كجثة أفلتت من القبر ..

يدنو من الموت .. ولكنه لم يفعل .

حاولت ..

وباطلاً حاولت الاختفاء عن ناظريه دون جدوى ..

فرغم أن ما بها من علل مجهولة كانت تدرس جسدها وتحصد شبابها إلا انها كانت فى انتظار الموت.

كان صغير الحجم جداً أمامها .. فلم يتعد ركبتها فعنقه تكاد لا تبلغ ركبتها .. بالكاد تلامسها .

فجلست على فراشها وضمت ساقيها شبه جالسة وراح أدهم يتحدث إليها فيقول :

ــ إش إش .. أحقاً حبيبتى ، عدت أراكِ ؟!

ألأنتِ بجانبى الآن ، أم حلم سرى ؟



تغمض عينيها لأقصى ما تستطيع ، وتطبق أهدابها ، فتفر دمعة هاربة من أسرها ، وكأنها لا تقوى على رؤيته . جلست على مقعد وثير ، كبير ، ضخم .

لم ير أدهم كائناً ضخماً ، متوحشاً كما صورها البعض بل رأى حبيبته بعد طول غياب .

اقترب .. فلامست رأسه أسفل ركبتها .

ـــ إش إش ، ألم تشتاقى إلىّ ؟

أرغبت عن لقائى ؟

أنا أدهم يا إش إش .

فوقعت دمعتها الأسيرة لتسقط من عينيه هو وتسبق كلماته ، وفتحت عينيها لتبصر شبحاً سقيماً.. هزيلاً.

وراح يقبل أناملها المنتفخة المتضخمة ،



كلا .. لم يشعر بأن شيئاً ما بها قد تغير . غريب هو أمر الحب ..!!

تكاد لا تعرفه إلا من صوته .. هزيل نحيف

ـــ أدهم مالى أرى خديك بالدمع بللا .. ؟

أمن فرح اللقاء أم كمداً وحزناً على حالنا ؟

فداؤك حبيبى من شر حادثى ..

رماك بهذا السقم والألم .

ـــ بل فداؤك أنتِ الدنيا وما فيها.

كانت نبضات صوته تدل على أنه لا يزال فريسة الحزن الذى رأت علاماته عند مقابلته آخر مرة فألحفت عليه بسؤالها :

ـــ أدهم .. لا تبك .. وكفاك حزناً علىّ .. ولا تخف، وانتبه إلى نفسك لأن الحزن على ما حدث لن يشفينى وينجينى مما نزل بى .



وتذكر كلماته مداعبة إياه فى محاولة بريئة لطيفة منها لإخراجه مما هو فيه :

ـ هنا لا تقع العين على غيرى ولا غيرك .. ولا يطلع إنسان على سرى ولا سرك .

ـ ما أعجب الملتقى يا حبيبتى .. لم أصدق ذاتى .. أأنتِ معى مرة أخرى ؟

يكسوها الحزن رغماً عنها فتفتر ابتسامتها وتتحسر وهو يعاود قائلاً :

ـ قد يهون العمر إلا ساعة رضاكِ .. وتهون الأرض والدنيا إلا موضع قدميكِ .

ـ كم تهُون علىّ كلماتك تلك يا أدهم شر ما أنا فيه من بلية وعذاب .. فمازلت تتغنى بى يا أدهم حتى بعد فراقنا.

ـ كلا .. لم نفترق .. ولن نفترق .. بل وسأغنى بكِ ولكِ متى حييت .. يقولون بها غنى .. قد غنيت من كربى .



ـ أتراني يا أدهم وكيف أصبحت ..!

تملأ عيناه الحب وهو يقول :

ـ مازلت بعيني فراشتي ، طفلتي الجميلة ، وستظلين هكذا حتى آخر العمر.

ـ طفلة ..!!

***





الطفلة أصبحت مستحيلة الآن يا أدهم ..!! أجل ، فأنا الطفلة العجيبة ، المستحيلة التى لا مثيل لها ولا شبيه فى هذه الدنيا .

تنفض شعرها الطويل للخلف فتبدو كجنية عجيبة أو عروس مسحورة من عرائس الأساطير وتتنهد وهى تجمع أشلاء نفسها لتقول بمجرد أن رأت دموع أدهم على خديه :

ـ كفاك دموع التماسيح تلك .. إذا كنت حقاً تحبنى فما يبكيك الآن ؟

هز أدهم رأسه وراح يتأملها ويتذكر أحاديثه التى طالما أعجبتها.

فقال :

ـ وهل خدعتك يوماً ما لتشبهى دموعى بدموع التماسيح فما أفظع المقارنة ؟



ـــ أجل فالتماسيح تفعل فعلتها وجريمتها الشنعاء بالتهام ضحيتها من الحيوانات ثم سرعان ما تذرف الدموع الغريزة بكاءً وحزناً على ضحيتها.

ـــ كلا .. يا حبيبتى ..

فالتماسيح لا تبكى على ضحيتها أبداً.

ـــ أمازح أنت أم تسخر منى ؟

ـــ بل قلت جداً ، لم أقل مهازلاً .

ـــ كيف ؟

عاد كعادته السابقة يتحدث بثقة ومعرفة .. بالطريقة التى تعجبها وكأنه يتعمد إشعارها بأن كل ما بينهما سيظل كما كان .

ـــ ليس بالضرورة أن تكون الدموع دليلاً على الحزن والبكاء فالتماسيح بعد أن تلتهم فريستها (الضحية) تبتلع معها كميات هائلة من الماء والأملاح .. ولذلك يجب أن يطرد



جسدها كمية الأملاح الزائدة والضارة بها المبتلعة فتخرج من الغدد الدمعية وليس هناك مخرج سواها.

ـ إذن فهى لا تبكى .

ـ بالطبع يا حبيبتى ، أنها لا تبكى .. ولكنها تخرج الأملاح فقط .. فليس كل الدمع بكاء .

تنظر إليه أشجان نظرة يملؤها الإعجاب والحب .. أدهم كما هو ، عارفاً بكل ما تجهله .. كم تحب فيه كل شئ .

ونسيت أشجان مصيبتها ، وأحزانها .. فهو الوحيد فى هذه الدنيا الذى بوسعه أن يمسح أحزانها ويخفف آلامها ، معه تنسى كل شئ ، وتحب كل شئ .

ما لهذا الحب من سحر عجيب يغذى الروح فينسيك الجسد وكهولته ، وعجزه واضطرابه ، وضعفه وحالته ، فيحيل السجن لجنة .. وارفة الظلال .

ـ أدهم .. كم أنا بحاجة ماسة إليك الآن يا أدهم .



ـ حاجتى إليكِ يا أشجان تفوق حاجتكِ إلىَ .. فما أتعسنى حالاً فى هذه الدنيا دونكِ .. فلتأخذ الدنيا كل شئ منى .. سواكِ ، أنتِ ، يا أشجان .

***

وتوقع بعض الباحثين توحش تصرفاتها كراهة لما حدث لها من اضطرابات جعلها بهذه الضخامة ولا شك ستدفعها لاقتراف أى جرائم هدم ، دون وعى أو قصد ، ومن هنا أصبح الجميع يتابعون تطور حالتها المرضية عن كثب .. خوفاً من الاقتراب منها أو رؤيتها .. فهى تمثل لهم وحشاً ضارياً .

وكم لاقى أدهم من معاناة للوصول إلي هذا الحارس الذى عرف عنه أنه الشخص الوحيد الذى يستطيع التحدث معها فقد كانت تعليمات المستشفى صارمة مشددة بعدم زيارتها من الجمهور وحتى أهلها وعدم زيارتها إلا بتصريح خاص رسمى من إدارة المستشفى وبوجودهم .



وكان بالفعل لا يسمح بزيارتها إلا المصورون والمذيعون والباحثون والقائمون على رعايتها وخدمتها ويدخلون إليها بحراسة شديدة ومكثفة.

وازداد حجمها عما كانت من قبل وعادت لتمنع رؤيتها من جديد عن أدهم .

وبذل أدهم قصارى جهده للوصول إلى هذا الحارس ، الذى أصبح أهم شخص فى العالم الآن لما ينقله من أحداث وأخبار عن أشجان .

وأغدقت عليه تجربة أشجان الكثير من المال ، ورغم أنه كان إنساناً مادياً ، وصولياً إلا أن طلب أدهم ، وإلحاحه ، بل وتوسله فى طلب لقائها .. جعله كثير الشفقة عليه فوافق مدبراً له لقاءها خلسة ، وشفقة عليه .

لم تمنعه شفقته تلك من تقاضيه مبلغاً كبيراً من المال مقابل هذا اللقاء ، المهم أنه أصبح يستثمر كل كلمة أو



تصريح أو معلومة عن أشجان .. مما عاد عليه بأموال وأرباح هائلة .

وكم احتال أدهم حتى أستطاع الوصول إلى أشجان مرة أخرى وعندما فتح الباب .. جاءها حاملاً باقة من الزهور يفتعل ويرسم الابتسامة على شفتيه .. يجاهد فى إخفاء دموعه .

أغمضت عينيها لأقصى ما تستطيع . وما أن سمعت اسمها بصوته حتى حاولت الهرب لتتوارى بعيداً عن ناظريه .. ولكن إلى أين ؟

فهمس قائلاً :

ـــ أشجان .. أشجان ..

أنا أدهم يا أشجان ..

كيف تخجلين منى ؟

أجهشت بالبكاء .



وكان من العسير عليه أن يمسح دموعها وكانت عيناه مليئتين بالعبرات ، وراح يرفع إليها بصره وكأنها لوحة ضخمة من صنع يد شريرة عبثت بجمالها وحسن قوامها .

فقالت له أشجان :

ـــ لماذا ؟ لماذا جئت يا أدهم ؟

ـــ ولم لا يا أشجان ؟ هنت عليك طوال هذه المدة والفترة من الزمن ألا أراكِ ولم تهن على من قبل ؟

ـــ أدهم .. كنت أتمنى ألا ترانى هكذا ؟

تقطع صوت أدهم باكياً :

ـــ أشجان ومالى إذا رأيتك هكذا ؟ إنى أراك فى كل وقت ، وفى كل لحظة . أنتِ حبيبتى .. الرقيقة .. الوديعة .. إش إش التى ستظل هكذا قبالتى .. دائماً حتى آخر لحظة فى حياتى..فأنا أحببتك كما أنتِ .. لا كما يجب أن تكونى .. أو كما يفترض أن تكونى .

ـــ أمازلت بعينيك رقيقة ؟



وسقطت دمعة من عينيها وهى تقول :

ــ لكنهم يدعوننى متوحشة ويخافوننى .. ألا يخيفك مظهرى يا أدهم ؟ ألم تصدق أقوالهم بأننى توحشت ؟

ــ مستحيل أن أصدقهم .. وكيف أصدقهم ، وأنتِ لستِ سوى قلب رقيق .. فهذا القلب الكبير الذى يسع العالم ، مستحيل أن يتوحش .

تماسكت .. بل تظاهرت بالتماسك .. ومسحت دموعها بأناملها المتضخمة التى بدت وكأنها منتفخة وقالت :

ــ إنى أشفق عليك منى .. وقد عرفت مصيرى .. فما ذنبك لتتألم معى ؟

كانت نظراته غير كل النظرات التى استباحتها ، وعرتها .. كانت عيناه ما زالتا مليئتين بالحب والحنان . لم تتغير بعد ، لم ترها غريبة .. ولكن ما بالهما ذابلتان ، شاحبتان وأردفت تسأله :

ــ هل أفزعتك رؤيتى على هذه الحال ؟



سبقته دموعه ، بل خانته وقد عاهدته وبذل قصارى جهده فى مقاومتها ولكنها خائنة وهربت من أسرها وفلتت من بين أهدابه وكيف سيقترب منها.

ثم أردفت :

ــ أرجوكِ يا أدهم لا تعذبنى ولا تأتى إلي مرة أخرى . دعنى لقدرى ، ومصيرى .. إنهم يقولون كثيراً عن حالتى ويتوقعون أكثر مما يتخيلون ولم أعد أحتمل ابتلاع العقاقير والمحاليل وإجراء التحاليل والقياسات .

لكن ماذا بوسعى فعله فى هذه الزنزانة ؟

فأنا أصبحت أهم شخص على مستوى العالم .. وأضخم فأر تجارب . ثم ابتسمت متضاحكة وهى تقول :

ــ هل.. رأيت فأرة كبيرة ضخمة مثلى أنا .

ثم انبعثت كلماتها كأنات حائرة تقول :

ــ أدهم .. هل صدقت ما قيل عنى ؟

وأردفت تقول بصوت متقطعه العبرات : وأننى



م .. ت .. و.. حشة ؟

ــ أنتِ ..! أنتِ يا أشجان متوحشة ؟ كيف ذاك والحب لم يسكن قلباً مثل قلبك أنتِ يا أشجان ؟ .

تعاود سؤاله بصوت متقطع وهى تمر بأناملها على وجهه وهو يحاول تقبيلها :

ــ ألا تخاف منى ؟ فأنا أعامل معاملة الحيوان البرى وحشاً ضارياً ؟

ــ أأنتِ وحش حيوان ..! ولم يوجد فى الدنيا قدر عطائك .. ولو لم يكن فى كفيكِ سوى روحكِ لجدتِ بها لسائلك .

ــ أدهم إنى أسألك ألا تشغل نفسك بى ؟

ــ من لى سواك لأنشغل به يا أشجان ؟

ــ أرجوك يا أدهم ..أتوسل إليكَ ..لا تعذبنى بعذابك لقد زهدت فى كل شئ .. ورغبت عن أى شئ .. ولم يعد لى مطمع وحلم الآن .. سوى الموت. تخيل يا أدهم..!! عندما



يصبح الموت حلماً ، وأملاً .. وتضن به الحياة على . عندما يصبح الموت رحمة .. من كل شئ . من الحياة ، وجحيمها .. بشتى أشكالها وألوانها. فهو الحلم الوحيد الذى أتمنى تحقيقه الآن .. أ من العسير على تحقيق هذا الحلم ؟

ـــ أشجان .. لم يكن هذا حلمنا يوماً ما ؟

ـــ ولكن لم يعد لى الحق فى سواه بعد الآن ، بل لم يعد لى القدرة على تخيل وتمنى غيره .

ـــ وأنا..! ألم تفكرى فى ؟ وماذا عساى بوسعى فعله بدونك يا أشجان ؟

ـــ وهل لى من حياة معك بعد الآن يا أدهم .

صرخ بقوة :

ـــ ستعودين مثلما كنت .. ستعودين من أجلى أنا .. ومستحيل .. . قاطعته :

ـــ لست الشى الوحيد المستحيل فى هذه الدنيا يا أدهم وإنما علاجى أيضا مستحيل وحبنا أيضاً أصبح مستحيلاً.



صرخ بعنف وصوته تمزقه الدموع :

ــ كلا .. يا أشجان .. إنى أعيذك بالرحمن ألا تقولى هذه الأقاويل .. فالمحال هو فراقنا .. وسيظل حبنا إلى الأبد رغم كل ما حدث وما يحدث . قالت بتنهيدة طويلة :

ــ و ما سيحدث ..!!

ثم استمرت تقول :

ــ لقد فلت من ظلمة الرحم ولكن من ينقذنى من ظلمة الحياة الآن . أبحث عن لحظة واحدة .. لحظة راحة .. لحظة يغيب فيها عقلى .. فلا أفكر.لحظة يضيع فيها وعى .. فلا أدرك ما أنا فيه لينقذنى من هذا العذاب ومن هذه الحياة ؟

ــ كيف تعذبين وأنا بجانبك يا أشجان ؟ فما فائدة وجودى إذن فى هذه الدنيا إذا لم أستطع تخفيف آلامك وأحزانك ؟ وماذا فى الأمر من حدث ؟ إنى لا أرى هناك سوى مرض وضخموه وفعلوا منه أسطورة لا تقهر رغم ضآلته أمام حبى الكبير ..آه .. يا أشجان لو تعلمين ما أحمله



لكِ من حب ، لو كان بوسعى أن أحمل عنكِ ما أنتِ فيه ما ترددت لحظة واحدة فى ذلك ؟

ــ أعلم يا أدهم أعلم .

وأخفت وجهها بين كفيها لتنتحب . وكم جاءتها كلماته تلك لتلتف فى عباءة من الدفء والحب لتقيها برد الوحدة القارسة وتخفف عنها هذه المأساة .. وتغيب عن الوعى فى سكرة من الحب لتنسى كل شئ ولكنها لم ترغب فى الاستسلام لهذا الخدر العذب ولو للحظات . همست له قائلة :

ــ إنى سجينة يا أدهم ..

ــ وأنا مثلك سجين .. لقد ضاقت الدنيا بعدك بما رحبت .. ولكن عزائى الوحيد هو الأمل فى الشفاء والعلاج لأنك قطعاً ستعالجين ولا محالة فى ذلك .

بكت وارتفع عويلها ليرجه ويزلزله فهمس يقول :

ــ ولكننى سأظل معك .. ولن أدع مجالاً لليأس من علاجك وكلى أمال فى الشفاء ولذلك ستظل رؤيتك ومقابلتك



تسعدنى .. فأنا سعيد بك رغم كل شئ . رغم العذاب .. والسجن .. والإشاعات .. رغم الحواجز ، والقيود ، والسدود التى بيننا .

ـ مازلت شاعراً خيالياً فأنت يسعدك الخيال والأمل وأنا يشقينى الواقع والحقيقة .

أطرقت بعد أن أمسك عن الكلام .. فرأى دموعها تنحدر على خديها كحبات اللؤلؤ فى سكون لتستقر على وجنتيه هو فقالت بهمس بصوت تخالجه العبرات :

ـ لا تبكِ يا أدهم ولا تخف .

ـ أخاف الفراق .

ـ فراق الحياة أم فراق الموت .. فكلاهما فراق .

ـ أما فراق الحياة فإننى لا أخافه .. لأنه لا توجد قوة فى العالم تستطيع أن تحول بينى وبينك وإنما فراق الموت ، لأنه الفراق الوحيد الذى لا حيلة لنا فيه .. ولا منتدح عنه .



وبدأ النهار يشمر أذياله للفرار من الليل ليتركها أدهم حبيسة الردهة والآلام .. وراح أدهم يناشد الدهر أن يكف يده ولو للحظة واحدة عنها .. إذ كيف تحتمل وحدها كل هذه المعاناة والشقاء .

***

وعاد أدهم وحيداً .. ولأول مرة يصبح الكون بما رحب قبراً .. يضيق عليه .. وبه .. لتهون دنياه تحت قدميها وراح يناشد ربه وهو فى الطريق الذى طالما كانا يقطعانه ذهاباً وإياباً:

يا من خلقت الدمع لطفاً منك بالباكى الحزين

بارك لعبدك فى الدموع فإنها نعم المعين*

لم تغب أشجان عن مخيلته لحظة واحدة ، تتمثل له صورتها الحالية ، يتأملها :

* حافظ إبراهيم.



ضخمة هى ، كلا لم يرها مخيفة مرعبة فمازالت رقتها تغطيها وظلالها تكسوها كما عهدها من قبل ، مثل ريح المسك ذاك ريحها . كيف ولماذا يحدث لها ذلك وقد كانت تشعر بالمصيبة تراها تصيب غيرها ولا تصبها .

تتألم لبؤس كل بائس وتحزن لكل محزون ، فلم يشرق فى قلبها سوى نور الحب والرحمة ، لن تموتى يا أشجان ، لن تموتى .. وسيعيدك الله إلى ، رحمة بى ، وشفقة بأحوالى.

كم تردد عليه الصحفيون ، المذيعون ، لنقل أخبارها ، ورغم امتناعه عن الإدلاء بأى معلومات عنها ، وعن أحوالهما معاً ، إلا أن الصحف كانت تتناقل ذلك رغماً عنه ، وعن طريق الحارس الذى كان لا يرى خجلاً فى الكسب من وراء ذلك .

وفى هدأة الليل الطويل ..

يخرج أدهم للحياة .. طليقاً وما هو بحر طليق ..يعود إلى سجنها فيسترد بها حريته .. يأسره عطرها الأسير.. فى



نفس الموعد ، يحمل أدهم الزهور مبتسماً وكله آمال وأحلام بشفاء حبيبته متغنياً بأناشيد حلوة التغريد .

ـــ وقلبى معكِ سيرافقك ويتبعكِ أينما وحيثما كنتِ .

ـــ قلبك معى ، وأنا روحى تركتها معك ..

بل سأتركها معك .

ثم أردفت تقول :

ـــ مازلت شاعراً ؟

ـــ بحبك .

ـــ لقد عذبتك بحبى وأذنبت بحبك .

ـــ إذا كانت شدة حبى لكِ هى ذنبى فلا تغفرى لى ذنبى لأن حسناتى فى الآخرة هى حبك .

ـــ أدهم أنت لم تتغير بعد مازلت شاعراً مغرداً متفائلاً. ثم ابتسمت وقد انبعثت البهجة فى أساريرها من جديد ليعاود أدهم أناشيده مرة أخرى .

وتفشل جميع محاولات أدهم فى الصمود والتماسك



أمامها فينتحب كطفل صغير ويهوى على قدميها .. ويرتفع عويله ليملأ أصداء الغرفة الواسعة .

وكم حاولوا وعبثاً حاولوا اقصاءه عنها دون جدوى ولم يصبح له شاغلٌ سوى أشجان وكأن هواها ألقى حجاباً على عينيه فلم يعد يرى فى الدنيا سواها .

فكان جوابه عليهم كما يقول لأمه :

ــ دعونا وشأننا .. فو الله ما يبقى إذا ما فنيتم شئ .. خلا الحب باقياً .

وكانت رؤياها تزيده قوة وأملاً .. وعادت لتملأ دنياه من جديد . وكم حاولت أفراد أسرتها زيارتها لكنها أبت رافضة رؤيتهم .. ولم ترغب فى رؤية أحد فى هذه الدنيا سوى دنيا وأدهم .

فسألت أدهم أن يرسل إليها دنيا .

***



الفصل التاسع

قيل للفيلسوف اليونانى زينون :

أى الملوك أفضل ؟

قال :

من ملك غضبه وهواه.



الأمومة .. سر إلهى ..!

أصبحت خيالاً من خيالات الوجود .. شبحاً من الأشباح التى لا وجود لها .. من فرط ما بها من حزن على حبيبتها أشجان .

وحان اللقاء ..

لقاء أم تفقد حياتها بحرمانها من وحيدتها التى حّرمت من أجلها وفى سبيلها من سائر نعم الحياة .. فإذا الحياة تسلبها كل ما تبقى لها .. فقد قامرت بكل ما لديها ، فلما خسرت خسرت كل شئ .



وجاءتها تحمل عرائسها المتحركة وكتب الأساطير والحكايات وقصص الأدب وطرائفه.

جذبتها أشجان لتجلسها على ساقيها وتقبلها وجاهدت وهى تحاول ألا تبكى أمامها .. ولكن كان من العسير عليها أن تتمالك نفسها وهى تراها بهذه الحال .

ـ أشجان .. إش إش .. صغيرتى ، ألم تشتاقى لأصدقائك .. كوكى يسأل عنك .

وأخذ يصدر أصواته المتلاحقة مهللاً لرؤياها ويقفز متدرجاً بجسدها ، حتى وصل إلى رأسها .. يتعلق بها ، يقبلها ، يداعبها . ولأول مرة تبتسم أشجان بعد دخولها المستشفى ، لقد استطاعت أمها دنيا وحدها أن تعيد إليها ابتسامتها وتهدئتها وقالت لها كذباً :

ـ لقد عثروا لكِ على علاج ، وستشفين وتعودين مثلما كنتِ .. فراشة ، رقيقة ، جميلة .

امتلأت عيناها بالدموع فأردفت :



ـ صدقيني يا صغيرتي .. أنا لا أكذب عليك وستعودين ترقصين .. لتجدين أدهم في انتظارك ، فما هي إلا أيام معدودات .. وستتغير كل هذه الأحوال الطارئة ، لتعودي مثلما كنتِ .

وعندئذ لن يستطيعوا حرماني من حضور حفلاتك لمشاركتك في كل شئ ، وراحت دنيا تعيد على مسمعها صورا من الماضي الجميل ، لتخفف بها وطء الحاضر البشع. وشردت أشجان وهي تنظر إلى كوكي وتعيد صور حياتها الماضية ، الماضي القريب .

منذ شهور ، شهور فقط ، كانت كحورية من حوريات الجنة ، ترقص ، تجرى ، تحلق بعيداً عن الدنيا .. وراحت للحظة تستعيد كل هذا بدفء الماضي وثوب المستحيل ..

ولقاء أدهم .. وشجرة الحب .. وشارع الأمان ، وروعة المكان الذي يسيران فيه . كم كانت أيام .. وقتها لم يستطع الحزن أن يسلك طريقاً إليهما يوماً ما . فإذا بالحياة



وكأنها كانت تدخر كل عذاب الدنيا وبلائها لتهديها إياه ، فى صباها ، وفى أجمل فترات شبابها .

كم أسعدها هذا اللقاء ، وبدد وحشتها .. دنيا وأدهم بمشاركتهما فى مأساتها التى لا حيلة لها فيها ولا شفاعة .

***

وظن العلماء أن حالة أشجان تحسنت بمقابلتها لأدهم ودنيا .. وأنها ستستجيب للطعام والتحاليل طوعاً منها لا قسراً عنها إلا أنها ظلت ترفض الطعام وتمتنع عن الكلام طوال الوقت .. لأنها غير متوقعة العلاج والشفاء لحالتها .

فكانت تمضى أوقاتها فى ترقب وانتظار النهاية وساعة الموت ، لتحفل به لينقذها من هذا الحمل الذى باتت تفقد قدرتها على تحمله .

***

كان القرد الشقى كوكى هو الوحيد فى هذه المهزلة والمسرحية التراجيدية التى يتقاسمون أدوارها رغماً عنهم هو



الوحيد الذى يسعده رؤياها هكذا ، ربما لغرابتها عن الآخرين وربما لعدم إدراكه كل ما حدث .

فكم هى نعمة ألا يعى أو يدرك أو يفهم ما حدث ، فلا يحزن ولا ييأس ، ما أسعده حالاً بل ما أسعد تلك الكائنات التى يبدو لا عقل لها ولا اختيار.

لكن..!!

هل حقاً تلك الحيوانات لا تفكر مثلنا.. ولا تحزن ولا تعقل المكروه ؟ أم أن قدرتها على الحزن أقل منا بل قد تكون معدومة ولا وجود لها على الإطلاق ، فهى تراه سعيداً رغم تعاسة ما يرى ، كم هى نعمة ألا يعى أو يدرك ما يحيطه من نوائب وكوارث الدهر .

كانت أشجان تنظر إليه ، تتابع تعجبه ، تغبطه أشد الاغتباط لما وهبه الله من نعم لا يدركها وقالت له :

ــ كم كنت أتمنى لو أصبحت مثلك أنا الأخرى..انظرى يا أمى الصغيرة كم هو فرح بلقائى ورؤيتى هكذا !!



كان ينظر إلى كل ما يحيط أشجان بدهشة ، وتعجب وربما بإعجاب ..! فأشجان أصبحت كبيرة .. شيقة .. مثيرة له والغرفة فسيحة .. وبينما كوكى يتعجب ويتأمل ما يحيطه رفعت دنيا رأسها بعد أن اقتربت من ساقى أشجان ووجهت لها السؤال بحثاً عما يرضيها ويرفه عنها وحدتها وتؤنس به وحشتها :

ــ ألا ترغبين فى بقاء كوكى معك ؟ قد نستطيع الحصول على تصريح بذلك من المستشفى ؟

وحاول التمسك بها رافضاً الخروج . أجابتها بحزم أكثر منه حزنا :

ــ كلا .. لا أستطيع حبسه معى هنا فى تلك الزنزانة فما الذنب الذى أقترفه ليعاقب مثل عقابى ؟ فأنا لا أريد لأى كائن أن يعانى مما أعانيه فهذا مصيرى وقدرى أنا وحدى وما على إلا الصبر .



ــ لستِ وحدكِ التى تعانين مما حدث ، لكننا جميعاً نعانى مثلكِ وربما أكثر منكِ . حملت أشجان دنيا بين يديها وقالت لها :

ــ أعلم أنك تعانين أكثر منى فأنتِ كنتِ لى خير أم خلقها الله فوق هذه الأرض وستظلين خير أم وهبها الله تلك الأمومة .. فأنتِ أمى التى أرضعتنى ، وأحسنت مثواى .. ولكنه قدرنا فلا تحزنى ..

حاولت أشجان التظاهر بالصبر والرضا وقالت :

ــ إنى بحاجة لأوراق كثيرة ، كثيرة قدر استطاعتك علها تفى باحتواء ما أرغب فى قوله وأقلام لكتابته.

ــ أجل يا حبيبتى .. اليوم سيكون لديك كل ما ترغبين فيه .

بدأت أشجان تسمح للبعض برؤيتها وزيارتها بدءاً بالحارس ثم أدهم ودنيا وكوكى .. هؤلاء فقط دون الآخرين ، كانوا يترددون عليها.. ولكنها ظلت رافضة مرافقة أى منهم



لها، رحمة بهم لا قسوة وكراهة لهم .

ولم تمض لحظة من لحظات أشجان إلا وكانت تتمنى فيها الموت والخلاص من حياتها وسجنها ، رحمة بهم أيضاً ، حتى لا تؤلمهم ، وتعذبهم برؤياها هكذا فيزيدها عذاباً فوق عذابها.

***

يبدو أن داخل كل منا كاتب ..!

مبدع .. ومؤلف ، فكل منا يستطيع ممارسة تلك المهنة .. وتصوير ما يعيشه هو ، خاصة إذا كانت هناك مأساة ما يعانى منها .. فهنا تتدفق التعبيرات وحمية الألفاظ ، وقسوة التعبيرات التى لا شك لا يفوقها أى مبدع أو فنان .

فالمرء يجد كثيراً من العزاء فى سرد آلامه ومتاعبه وأحيانا تدوينها وكتابتها أو رسمها .. فليس هناك من شخص أو إنسان يجيد الكتابة والقراءة إلا وحاول أن يكتب مذكراته وآلامه .. وأحياناً أحلامه ، وأوهامه ثم سرعان ما تتبدد هذه الرغبة فى الكتابة فلا يستمر فى ممارستها سوى المبدعين



الذين لديهم القدرة على التعبير ليس عن أنفسهم وحسب ، بل وعن الآخرين أيضاً .

فهم يتجاوزون المرحلة الذاتية ، للآخرين ثم يبدع أكثرهم فى التعبير عن مشاكل الإنسانية ليس ذلك فحسب بل قد يحمل آلام البشر ومعاناة الآخرين على عاتقه وكأنه مسئول عنهم .

وأشجان كانت تعانى تلك المعاناة الهائلة التى تجد رغبة قوية .. رغبة عارمة تجتاحها للتعبير عنها ، بل للبوح بها ، وكأن فى ذلك راحة لها ، لتفريغ كل ما تحمله من الآلام والشقاء .

تشعر بحاجة ماسة لكتابة كل ما يجتاحها وكأنه حمل ثقيل تنوء بحمله. فستلقى هذا العبء الثقيل ، وتلك المأساة الغريبة بما تحمله من هواجس وشكوك عن كاهلها ، لتلك الأوراق علها تهدأ وتستريح .

***



عثر مصادفة أحد أعداء تلاميذ أنتينورى وكان شديد العداوة والكراهية له ..على كل شئ فى تجربة استعادة أشجان وخروجها للحياة من جديد .. ولما كان العالم يتابع حالة أشجان بما فيهم أنتينورى ، فقد رفع الأمر للقضاء .

وقامت وقتها كل من السفارة المصرية والمكتب الثقافى والاعلامى بنقل الأمر وإرسال كل ما يشاع عن تجربة أشجان العلمية بمستشفى (الاستنساخ والولادة) إلى الأنباء المصرية .

ولم تمر لحظات منذ إعلان هذا النبأ إلا وتداولته جميع الصحف ووسائل الاعلام فى جميع أنحاء العالم وعدوها الطفلة (إيفا) حواء .. أول طفلة وحالة بشرية من نوعها.

ثارت بها الدنيا ولم تهدأ وهرب أنتينورى من الحكم الذى صدر بمحاكمته لتجريمه فى إجراء تجارب على الإنسان وإخفاء ذلك رغم التحذير وإصدار القوانين الصارمة لمن يتجرأ ويفعل ذلك . وكم زاد عدد السائحين الذين أتوا من



مختلف أنحاء العالم ليروا الطفلة المستحيلة وخاصة من إيطاليا .. وقبل تحذير الحارس من إدلاء ونقل أى معلومات لأشجان ، كان قد قص عليها كل شئ بالتفصيل .

لقد أوصاه أدهم بتلبية كافة متطلبات أشجان وكانت أشجان تطلب الصحف وسماع بعض الأخبار فيتسلل إليها براديو صغير وبالصحف والمجلات التى تعرض كل شئ يحدث لها بالتفاصيل .

تجلس أشجان .. تفتح الصحيفة التى نقلت التجربة بكامل تفاصيلها ، بكل وضوح ، بلا بتر ، ولا حذف ، ودون اختصار. كانت أنفاسها تتلاحق ودموعها تتسابق وهى تقرأ أحداث حياتها الغريبة.. وتهرب السطور.. وتتلاحق وتتشابك أمام عينيها ، وتمسح دموعها لتتمكن من رؤية قصة حياتها ، لتعرف فجيعة شكوكها وأن ما شعرت به لم يكن باطلاً هباءً وتجنياً ، بل كانت كل شكوكها فى موقعها ، وأن دنيا هى أمها ، فهى التى حملتها وهناً على وهن وفصالها ورعايتها وحبها لها .



وعرفت أشجان حقيقة وجودها وسر حياتها وما كانت تخفيه عنها أمها وراحت تغمض عينيها .

فإذا بها ترى كل شئ .. قبالتها .. وكأنه يحدث الآن فقط .. تستعيد اللحظات التى كادت تعذبها من قبل دون تفسير ، فها هى الآن تعثر على ضالتها المنشودة والسر الضائع وتحل اللغز العسير الذى طالما حيرها وكم عذبها طويلاً.

فهى بلا اب ، وأُمين . كلا.. إنها ليست أمها .. فهى أم شقيقتها .. توءمها الراحلة التى نزعوا منها الخلايا واستباحوا قبرها ، أما دنيا فهى بلا شك أمها ولا محالة فى ذلك . وانفردت مجلة صباح الخير بنشر كافة التفاصيل بمنتهى الدقة والصدق ، ولم تكن أشجان وحدها هى التى تقرأ كل هذه التفاصيل بل قرأها كل من أدهم ودنيا والأم ضحية .

كانت قصتها ناقصة غير كاملة ، فلم تكتب المجلة تفاصيل شعورها وإحساسها مما جنته من جراء تلك التجربة ورغبة الأم فى أن تصبح أم بأى وسيلة وبأى ثمن .



وراحت تقضى وقتها كله فى كتابة وسرد رسالتها.. أطول رسالة كتبتها فى حياتها ، بل أطول رسالة كتبت فى التاريخ .. فهى لم تكن رسالة وحسب .. بل كانت حياتها كلها التى كان لزاماً عليها إكمال ما ينقصها .

وأوصت الحارس منذ بداية الشروع فى كتابتها أن يسلم تلك الرسالة لشخص واحد فقط .. هو أدهم .. ليطلع عليها ويقرأ كل ما بها لتكون لديه وحده الحكاية كاملة ، غير ناقصة ، ولا مبتورة .

***

وعندما أتتها دنيا سألتها أشجان :

ــ هل كنتِ تعرفين أننى مستنسخة ؟

ــ كنت أعرف أننى أحمل بويضة ضحية المخصبة فى رحمى لأنها لم تستطع حمل هذه البويضة ، وهناك خلل ما فى رحمها يطرد البويضات منها . وبالتالى كان دورى



محدداً وهو حمل بويضتها المخصبة ولكن لم أتخيل قط إننى أحمل بويضة امرأة غيرهاومادة وراثية لطفلتها الميتة .

وراحت تقص عليها دنيا الحقيقة كاملة ، بكل تفاصيلها المؤلمة كما كانت تعرفها وكما صورها لها الآخرون ..! كم عدد المرات التى نشرت فيها وطويت صفحات المجلة .. ؟

لا تدرى .. كانت السطور تجرى خلف بعضها البعض تتسابق أمامها بلا رحمة فلا تستطيع ملاحقتها .. والدموع تنساب على وجنتيها من هول ما تقرأ . والكلمات تميط اللثام عن الحقيقة المستورة .. ليرتجف كل ما فيها ..

وأخيراً حلت شفرة حياتها ، ولغز مرضها ، وسر أمها وغموضها. كلا .. لم يفجعها كل ما عرفت من أسرار..

فقد روضها المرض فأفقدها القدرة على الإحساس والشعور بأية فجيعة أخرى .. لتتساوى لديها كل الأشياء .. المرة والحلوة .. لتفقد الإحساس بالحياة والزمن ..!



وكيف تكون هناك فجيعة أو مصيبة أدهى بلاء مما هى فيه .. فهى فى مصيبة أشد ومصيبة أقوى من كل المصائب والنوائب والرزايا .. ؟

لقد أنفرد البلاء بها ، فحل بها وحدها دون الآخرين .. فأصابها بعلل لم يصب بها إنسان آخر فى الوجود كله .

***

وعادت الأم " ضحية " لترى الأرض غير تلك الأرض ، والسماء وقد تلبدت بالغيوم القاتمة ، حتى الطبيعة أصبحت صامتة .. واجمة .. حزينة وكأن الدنيا عادت إلى عهدها الأول لا يسكنها أحد .. موحشة ، مرعبة ، مفزعة ، تخلو من كل شئ إلا منها. وقد فقدت حياتها بتلك المأساة القاسية . ورغما عنها تعيش تجتر ذكرياتها مع الحرمان والبحث عن طفلة تملأ حياتها فإذا هى الآن تعانى من جديد وليتها وحدها هى التى تعانى .. لكن يعانى معها كل من فى البيت ، وتعانى طفلتها الوليدة وحدها.



لتحمل على عاتقها وحدها جنى ما زرعته فى أرضها من زهرة برية فى ريعان شبابها لتعانى قسوة الحرمان .. فى انتظار الموت .. بل والبحث عنه واللجوء إليه .

***

منعت وحرمت أمها من زيارتها .

وللمرة الثانية .

تحرم من ابنتها ، الأولى بعد دفنها ورحيلها والثانية بعد عودتها . الأولى كانت طفلة ميتة والثانية حية بعلة مستعصية وما عليها إلا انتظار الميتة الثانية .

وصدر الحكم .. وبدأت محاكمتها ، يحققون ، يبحثون ، يفحصون ، وتتذكر وعبثاً تتذكر كل شئ .

ورفضت أشجان مقابلتها فهى السبب الوحيد لمأساتها تلك ، فتحقيقاً لرغبتها الحمقاء فى الأمومة أودت بحياتها ، وألقت بها فى ذلك الأتون المستعر من المصير ، لتلقى حتفها



بل نحبها . أية معذرة تلك التى تتوسل بها إليها لتحاجج جهلها بهذا المصير ؟ إنها تحدث القدر ، الموت ، فماذا جنت الآن ؟ سوى مأساة متحركة .. يعانى من قسوتها أخرون لا شأن لهم بها على الإطلاق ، بل لا شأن لهم بتلك الأمومة المزعومة التى لا رحمة فيها ولا عطاء .

فقد كانت أنانية..

أخذت الأم تكتب ، تبحث ، عن أنتينورى لكنه أختفى وتركها لتلقى حتفها ومصيرها المظلم وحدها . لم تعد تتذكر من أشجان سوى كلمة واحدة .. راحت تدوى فى رأسها حتى كادت تصم أذنيها :أنتِ لست أمى .. لست أمى .. لست أمى.

لم تقرأ أشجان وحدها أحداث حياتها المنشورة أكثر من مرة بل طويت ونشرت أوراق المجلة عدة مرات الأم هى الأخرى .



وراحت تتردد أنباء العالم الإيطالي الذي استنسخها وهو يعد العاجزين عن الإنجاب بتحقيق آمالهم بعد ما حقق معجزته في الطفلة المستحيلة . وتردد في الأوساط العديد من التساؤلات :

هل استنسخت أشجان من طفلة حية أم ميتة ؟ واستبعد العلماء استنساخها من ميتة رافضين هذه الأقاويل بأنها مجرد ادعاءات ودافع أنتينورى عن نفسه بنفى هذه الواقعة إلا أن هذا الأمر لم يبرئه .. وصدر الحكم بمحاكمته لاستمراره فى إجراء تجاربه العلمية على البشر.. ولم يعثر عليه بأي حال من الأحوال.

كان كل شئ مكتوباً بمنتهى الدقة والعناية .

وأكملته أشجان كالتالى :

***



الفصل العاشر

ليس ثمة ما يتحدى الموت ،
لأن الموت شريعة الحياة .
بـــوذا

استنساخ الموتى ..!

الوجــود والعدم ..

رحلة الحياة التى لا تخلو لحظة من ميلاد وموت ..!

عرس وتأبين ..

لقاء ووداع .

كلنا محكوم عليه .. بالإعدام بالموت .. بالفناء .

فى وقت غير معلوم ..

فى مكان غير منتظر ..



بطريقة مجهولة .. بل وغير متوقعة أيضاً .

فكان الحل الوحيد أمامنا هو البحث عن الخلود .

فى دنيا فانية .. زائلة . شئ مريح .. هو أن يبحث كل منا عن خلوده ، فى ولد يحمل اسمه ، أو عمل يمجده .

وحب الحياة غريزة لا يمكن التخلص منها. فالحياة مفرد مؤنث كالمرأة ، لا تقاوم . تغريك . رغم المرض والكبر والعجز . والصراع الدائم من أجل البقاء . إلا انها لا تقاوم .. لكن .. !

لماذا تُقتل عمداً هذه الأم " ضحية " كل هذه المرات ؟ وكأن عذاب البشر كله قد جُمع ليصب فى نهرها وحدها دون سائر الخلق .

كانت فى كل مرة تعود لترتدى ثوب الصبر ..

قسرًا وعمدًا .

لكن ..!



ثوب الصبر هذه المرة ممزق بفراقها ..فراحت ترقعه بالحلم الكبير . ولكن حتى هذا الحلم لم يعد من حقها إذ كيف ستنجب فى هذا العمر المتقدم .

ومن هنا بدأت الحكاية :

حكاية أم ... رفضت بإصرار شديد وضع طفلتها الوحيدة .. الصغيرة ، التى لم تتجاوز الثالثة من عمرها بعد ، فى تابوت الموت .. وظلت تطبق عليها بين أحضانها خوفاً من هذا الحشد الهائل ، والسواد الذى ملأ قاعة البيت الفسيحة بسرعة ارتدى نساء الجيران والعائلة والأقارب رداء الحفل الذى سيقام بعد قليل لتأبين طفلتها الوحيدة فى حفل وداع .

تلك الحفلة الوحيدة التى يحدد فيها لون الرداء .

الكل مغطى بالسواد .. وكلما اقترب الأب "سرحان " من ضحية ليأخذ الطفلة لإعدادها للدفن صرخت وراحت تحدثها فى هيستريا بالغة :



ـــ لماذا لا تصرخين .. ؟

قولى لهم إنكِ لم تموتِ بعد .. وإنك لن تتركينى وحدى فى هذه الدنيا . وراحت تدور فى أرجاء غرفة النوم بين المقربين من أخواتها وزوجها متسائلة :

ـــ أتسمعون بكاءها ، فهى هكذا دائماً ، لا تكف عن البكاء والصراخ .

تضمها لأقصى ما تستطيع وهى تقول لها :

ـــ إنى بجانبك يا حبيبتى ،

ولن أتركك أبداً ولن يأخذك أحد منى.

كم مر عليها من الوقت هكذا وهى تحاول إقناعهم بأنها ليست ميتة وأنها مازالت تعيش ، والجميع يحاول نزع الطفلة من بين ذراعيها إلا أنها كانت تقاوم بحيث لم يستطيعوا نزعها منها.



فساروا بها إلى طريق المقبرة ، وهى لا تزال تحملها بين أحضانها ، وسارت السيارات الواحدة تلو الأخرى ، تحمل الكثير من الناس ، منهم من تعرفهم ومنهم من لا تعرفهم . كانت عيناها تحدقان طوال الوقت باندهاش بين هذا وذاك وكأنها تقول لهم :

ـ ماذا بكم ؟ ولماذا كل هذا الحشد الهائل ؟ والى أين المسير ؟ ما لهذه الزفة الواجمة الموحشة ؟

الجميع فى صمت حتى هى . وبينما وصلت السيارة إلى أول طريق المقابر . كان طريقا موحشاً .. لا يسكنه سوى الأموات .

فلماذا يأتون بها إلى هنا ؟

تتلفت يمينا وشمالاً .. وعيناها الحائرتان تفتشان فى وجوههم عن إجابة . والجميع صامت .. ساكن .. لم يكن هناك مارة أو سائرون . المكان خال تماماً من كل الأحياء ،



لكنه ملئ بالجثث المدفونة . وأحست أن أشباح الموتى ستطبق على أنفاسها ، فصرخت بفزع وهم يمنعونها الخروج من السيارة ، وأمسك بها اثنتان من أخواتها ، ومنعتاها من النزول معهم ، وقد ملأ صراخها أصداء المكان إلا أن ذلك لم يمنعهم من استخدام القوة فى منعها من النزول ، ونزعوا الطفلة من بين ذراعيها بمشقة هائلة ، وذهب باقى الحشد لدفنها فى المقبرة التى أعداها من أجلهما ، ولكنها سبقتهما إليها لتسكنها وحدها .

وتعالت صرخاتها :

لا تتركوها وحدها فى هذا المكان الموحش ، فهى صغيرة ولن تستطع البقاء وحدها . وبعد معاناة شديدة تسمرت عيناها وهم يغلقون دونها نافذة القبر .

هالها الرعب وهم يغلقون المقبرة ، وراحت تتخيل طفلتها الجميلة وسط الغرفة الموحشة.. فصرخت وهى تراهم



يعودون دونها ، وعلت صرخاتها وملأت المكان بعد أن حالوا بينها وبين الحياة .

وبمجرد أن ركب بجوارها زوجها غابت عن الوعى ولم تشعر بذاتها إلا وهى على فراشها .. كلما فتحت أهدابها أبصرت أناسا غير هؤلاء الذين رأتهم من قبل .

ربما غرباء .. أو أقرباء .. لكنهم كثيرون . تبحث نظراتها عن طفلتها وسطهم وعندما نفشل فى العثور عليها تغيب مرة أخرى عن الوعى فى سبات عميق لتنفصل عن الواقع الأليم .

كم مر عليها من الوقت وهى على هذه الحال ؟

ربما ساعات وأيام وربما شهور وأعوام ..

دون جدوى .. حتى كادت تفقد بصرها بكاء عليها .

***



تعودت ألا تبرح فراشها إلا فى أشد الحاجة ضرورة ولكنها نهضت من رقدتها تسير فى الغرفة وكأن كل ما فيها غريب عليها .

أصبحت لا تألف شيئا فى هذا المكان ، وقفت تشد ستائر الشرفة وراحت تنظر إلى المارة بألم وحزن ثم عادت إلى فراشها فوجدت الصحيفة اليومية بجوار الفراش فوق " الكومودينو " فراحت تتصفحها دون اكتراث وفجأة فتحت عينيها لأقصى ما تستطيع وهى تقرأ عنواناً :

"أبو الأطفال المستحيلين" .. طبيب إيطالى ينجح فى عودة الأمل للنساء المسنات ، ومرضى العقم ، وسن اليأس .. حيث استطاعت سيدة فى الستين من عمرها إنجاب طفل بعد زراعته بويضة فى رحمها .

وتحركت نظرات ضحية لتعيد ما قرأته باندهاش مرة أخرى .. وبسرعة البرق لمعت مئات الأفكار فى رأسها فى وقت واحد ، وكم تمنى زوجها عودتها إلى طبيعتها بعد



فقدانها طفلتها الوحيدة .. وبالقطع لن يرفض طلبها هذا ، هللت تنادى عليه :

فأسرع إليها يملؤها الفرح والبهجة فهو لم يسمع صوتها منذ أمد طويل ، فسألته بتلطف ودعة وهى تعطيه الصحيفة ليقرأ :

بالطبع كان يعلم جيداً ما يؤلمها ، وقرأ الخبر ونظر إليها فراحت تحثه على إتمامه. وعندما أنتهى من قراءته ،لم يتردد لحظة فى قبول رغبتها التى لم تفصح عنها بعد ،

وقال لها :

ـــ ولكن هذا الأمر بحاجة إلى السفر .

ـــ وماذا فى ذلك يا حبيبى ؟!

فلنسافر إلى ايطاليا ،عسى الله يكرمنا على الكبر بطفلة أخرى ، فانا لم أبلغ بعد الستين وسنى اثنان وخمسون سنة فقط .



ابتسم زوجها بعذوبة وهو يقول :

ــ بل خمسة وعشرون فقط ، لكنك قلبت الرقم .

ضحكت وهى تخبئ دموعها بين ذراعيه لتختفى وتهربَ من حزنها بين أحضانه .. كان يود لو كان الأمر بيده لعوضها عن طفلتهما بمائة طفلة أخرى وألا يراها تخفى دموعها هكذا !

***

وعادت الدماء لتسرى فى عروقها مرة أخرى وكأنها بعثت من جديد .. هكذا يكون سحر الأمل عجيباً على النفوس فمجرد التعلق بأذيال المستحيل ، يحيل الشقاء والعذاب إلى رحمة ، ورغبة فى مواصلة الحياة والتمسك بها. فقدر ما تكون الرغبة مستحيلة إلا أن التعلق بها والتطلع بتحقيقها يحيل الشقاء واليأس إلى رغبة فى مواصلة الحياة .



وتعلقت ضحية بذراع زوجها وهى تنزل من الطيارة فى مطار روما ــ فيوفيطينا ــ وكأنها تتعلق بأهداب الحياة .

كانت صامتة .. يملؤها الخوف والطمع .. ومن حين لآخر يغذيها زوجها المحب بنظراته الثابتة الهادئة .. كانت كلما تعبت أفكارها وعجزت عن تهدئة نفسها بحثت عن ملاذ ينقذها من هذا الصراع الذى تعيشه فكان هو ملاذها الوحيد .. كان يشكل لها الحل الأمثل بل الوحيد لديها لكل ألوان الحياة .

ولكن ..!!

ما باله هذه المرة لا يستطيع إعانتها ، فلم تعد نظراته وأحضانه تخفف من وطأة حرمانها من طفلتهما الوحيدة . كان حزنها أكبر وأجل من حبه ، فلم يعد دواؤها ، لأن جرحها كان أكبر من أى دواء .. كان يقول لها :

ــ ضحية .. كل الجراح تلتئم يا حبيبتى ،

لماذا لا تنسين ، وتهدئين ، ألست بجانبك ؟



فكل الجراح تلتئم .

ـــ إلا جرحى أنا ، سيظل ينزف متى حييت . إنها بعض منى ، فأنا تائهة بدونها ، ولا أجد سبباً لوجودى الآن ، فلماذا أحيا إذن ؟

ـــ من أجلى أنا .. لقد كنا سعداء قبل إنجابها فلماذا لا تعودين مثلما كنتِ ؟

ـــ كانت الحب الكبير فى حياتى .

شعر أنه يتضاءل أمام هذا الطور العالى من الحزن والضعف ، ومضى يؤدى مهمته التى جاءا من أجلها ، فهو عليه تنفيذ كل رغباتها ، لقد تعودت منه تحقيق كل أحلامها ، فلماذا يشعر بالعجز الآن أمام حلمها هذا فى تحقيق أمومتها تلك المتأخرة ؟ وبعد مجهود عسير استمر لعدة أيام استطاع أن يعثر على الطبيب العالمى سيفرنيو أنتينورى . وقبل أن



تفتح المساعدة الباب لمقابلتهما بالطبيب وقفت ضحية للحظة موجهة كلماتها المتقطعة من شدة الحزن والخوف إلى زوجها:

ــ إذا رفض وفشلنا فى .. قاطعها وهو يضع أصابعه على فمها لمنعها من الكلام :

ــ لن يحدث أى فشل يا حبيبتى ، ولندعو الله أن يحقق أملنا ، ودعِى الأمور تجرى فى أعنتها ، فنحن نسعى ، وما علينا إلا السعى.

ابتلعت دموعها .. وخرجا يملؤها التفاؤل بعد أن حدد الطبيب موعد زراعة البويضة بعد إجراء كافة التحاليل اللازمة لذلك . مضت خمسة أيام بعد زراعة البويضة الغريبة عنها ، تحت الفحص والتحاليل .

كانت قلقة أكثر مما يجب . وكم عدد البويضات التى تم زراعتها فيها دون جدوى ، رغم ارتفاع سعرها الباهظ إلا أنها سرعان ما تسقط رافضة هذا الرحم المسن الغريب سكناً



لها . وفى كل مرة تفشل فيها زراعة بويضة تذبح فيها أحلامها ، وتراق دماؤها كمداً وحزناً على ذلك .. وللمرة الثانية تعاود غرفتها فى الفندق مع زوجها تجر أذيال حسرتها وتعاودها ذكرى طفلتها الراحلة .

كانت تخفى دموعها بوسادتها حتى لا يشعر بنحيبها ولكنه سرعان ما يكتشف ذلك وعبثاً يحاول تهدئتها دون جدوى . وقررا العودة . إذ ليس هناك ما يدعو لاستمرارها فى روما ، وبعد أن حجزا تذاكر العودة تدخل عليها مضيفة الفندق للمرة الثانية فتجدها عابسة متجهمة وهى تقص عليها سر تعاستها فتقول لها بالإنجليزية :

ـــ كيف لم يستطع أنتينورى وهو يفعل المستحيل ، فهو أعلن منذ فترة عن قدرته على استنساخ بشر ، ليس ذلك وحسب ، بل واستنساخ الموتى أيضا.

هللت من أعماقها فرحة مستبشرة ، تمسكها من كفيها وتدور بها وسط الغرفة وهى تقول :



ـــ اعيدى علىَّ ما قلته من فضلك ، أحقاً ما سمعت !! يستنسخ الموتى ، ويعيدهم إلى الحياة ، يا إلهى ما أسعدنى حظاً بما قلته.

وأغرتها الفكرة .

اللعبة الجديدة ، والكوميديا العلمية ، بل الملهاة العلمية . وبدا لها هذا العالم وكأنه ساحر ، عجيب ، سيحيل حلمها إلى حقيقة ، لتكون نهاية عذابها على يديه هو. ثم أجلستها أمامها لتقص عليها كل شئ بالتفصيل ، فقالت المضيفة :

ـــ هذا العالم تم حبسه ، وإغلاق المستشفى الخاص به "الاستنساخ والولادة " وعندما حاول استنساخ بشر وأعلن عن وجود بويضات مخصبة صناعياً ويمكن زراعتها فى النساء ، كان الأمر عندئذ هيناً من الممكن قبوله أما عندما أعلن عن محاولاته فى استنساخ بشر من خلايا جسدية ، كان الأمر مريباً بل ومن العسير قبوله بأى حال من الأحوال لتجريم وحظر إجراء التجارب العلمية على الإنسان .



وحاولوا منعه ومحاكمته ودافع عن نفسه بقوله إن المستنسخ سيكون من خلايا أحد الأبوين فلا يعد هناك أى خلط للأنساب ، وإنما هى مجرد وسيلة لعلاج العقم المصاب به احدهما. لكن سرعان ما تسربت الأقاويل والإشاعات عن محاولاته فى استنساخ الموتى . وعندئذ تم إعلان اغلاق المستشفى وتقديمه للمحاكمة ، لكن يشاع الآن انه يبحث فى هذه التجارب سراً ولم يتخل عنها بعد ، ولكنه دائماً تحت المراقبة . وتم طرده من الجامعة ، وبدأ يستعيد عمله فى عيادة صغيرة أسسها هو وزوجته ، وذاعت شهرته بعلاج الكثير من حالات العقم .

لم تنتبه ضحية بكل هذه التفاصيل ولم تسمع سوى جملة واحدة توقف سمعها عندها " استنساخ الموتى " وإعادتهم من جديد إلى الحياة ، كانت تتردد على مسمعها دون سائر التفاصيل الأخرى .

دخل زوجها يسألها :



ـــ هل أعددتِ كل شئ ، الطائرة ستقلع بعد ثلاث ساعات ، ولابد من التحرك الآن .

ـــ لكننا لن نغادر روما .

أندهش قائلاً :

ـــ لماذا ؟

ـــ لأننى وجدت حلاً لمشكلتى .

أمسكها من كتفها وهو يتحدث إليها بتؤدة وهدوء :

ـــ وهل لديكِ مشكلة يا حبيبتى ؟ كل ما فى الأمر انك متعبة قليلاً ، ولم تفيقى بعد من صدمة الموت .

اندفعت كالرصاص من مدفعه تقول :

ـــ بل أنى فقت الآن فقط ، وقد عرفت أنه لا يوجد مستحيل.

نظر إليها متعجباً ، فهذه الثقة التى تتحدث بها كانت أكثر من مجرد أمل أو خيال يداعبها.



فأردفت تقول كطفلة تتشبث بلعبتها الجديدة :

ــ ماذا تفعل لو عرفت أن فقيدتنا ، طفلتنا الوحيدة ، من الممكن أن تعود إلينا ؟

ردد بفزع ظناً منه أنه قد أصابها مس من الشيطان فراحت تتخبط فى رغباتها وآمالها :

ــ تعود إلينا ؟ وقد ماتت !!

ــ لماذا تنظر إلى هكذا ، لست مجنونة يا حبيبى ..

ــ إذن أنا الذى جننت ، عندما أتيت بكِ إلى هنا وطاوعتك .

ــ كلا يا حبيبى ، لقد أحسنت فعلاً ، ولكن تصور أنه يمكن استنساخ طفلتنا وإعادتها إلى الحياة من جديد ..! أرجوك يا حبيبى الغ تذاكر العودة فعلينا مقابلة الطبيب مرة أخرى ، وعرض الموضوع عليه ، فإقناعه لن يكون سهلاً ، لأنه يفعل ذلك سراً ، ومهمتك إقناعه بشتى الطرق ولو بلغ



الأمر أن تعطيه كل ثروتنا مقابل ذلك ، فكل شئ يهون فى سبيل إعادتها إلى .

وبدت له زوجته مغرمة بالفكرة والمغامرة أكثر من رغبتها فى طفلتها وما عليه إلا تحقيق ما تصبو إليه حتى ولو كان شططاً .

كادت الفرحة تسلب عقلها ، مجرد الأمل فى عودة طفلتها ، جعلها فرحة مستبشرة ، متهللة ، تتحدث بلهفة أعوام وأعوام من الحرمان ، وهاهى الآن ستروى عطشها وأرضها المتشققة جفافاً وحرماناً .

ومرة أخرى فتحت المساعدة باب غرفة الكشف ، ليقابلا أنتينورى للمرة الثانية ، فاجأها بقوله بالإنجليزية :

ـــ لقد سبق وأن شرحت لكِ أن حالتك يصعب فيها زراعة أى بويضة أخرى وأن أية محاولة فى ذلك ما هى إلا محاولات عابثة لا طائل ولا جدوى منها .



أسرعت هى بملاحقته قائلة :

ــ كلا ، يا سيدى ، فنحن نريدك فى موضوع آخر .

ــ ما هو ؟

ــ استنساخ !

ردد بتعجب :

ــ استنساخ ....!!!!

ــ أجل .. استنساخ طفلتى .

ــ ألديك طفلة ؟

ــ ماتت .

نظر إليها بتعجب محاولاً إخفاء سره ، متجاهلاً كشف حقيقته:

ــ ماذا تقولين ؟

ــ أقول إنه بوسعك أنت ، أنت وحدك إعادة الحياة إلى ، بإعادتها هى للحياة ، وأنت وحدك الذى يستطيع ذلك ، أليس كذلك ؟

ـــ لكننى ..

قاطعته :

ـــ كلا ، أرجوك ، بل أتوسل إليك ، لا ترفض ، سنفعل كل ما تأمر به ليكون الأمر سراً ، ولن يطلع عليه مخلوق على وجه الأرض سوانا ، وسنعطيك كافة الضمانات لذلك ، وكل ما تطلبه ثمناً لذلك ، أرجوك يا دكتور لا ترفض.

صمت الطبيب قليلاً ، ثم قال :

ـــ من الممكن طبعاً إجراء استنساخ من أى منكما بنزع خلية منه ولكن ستقابلنا ذات المشكلة ولكن حتى هذه المشكلة من الممكن حلها بزراعة البويضة فى امرأة أخرى بديلة ، لتكون بمثابة حضانة للجنين ، وليس هناك ما يدعو فى حالتك للمقامرة باستنساخ الطفلة الميتة .

ـــ أليس بمقدورك إعادة طفلتى ؟ فأنا أريدها هى .. هى وحسب .. فلماذا تأخذ من خلايانا إذا كان من الممكن أخذ خلاياها هى ، لإعادتها هى ، هى على وجه التحديد دون



غيرها ، لماذا لا تنقذ امرأة شقية مثلى ، أرجوك يا دكتور ، أتوسل إليك . ــ ولكنها مخاطرة .

ــ ولكنها ستنجح ، قطعاً ستنجح .

أبتسم الطبيب أنتينورى لثقتها به ووعدها بالتفكير فى الأمر ، وأنه سيجيبها بعد يوم واحد فقط .كان زوجها ينظر إليها بدهشة على إصرارها بفكرة الاستنساخ من جثة طفلتها ورفضها الاستنساخ منهما ، إذ كيف استطاعت ولو لمجرد التفكير انه من الممكن فتح قبر الطفلة وإخراج جثتها لنزع خلايا منها ، كيف أغرتها الفكرة وأعمت بصيرتها لدرجة جعلتها تستبيح فى سبيل تحقيقها كل شئ .. بل وأى شئ .. وكأن كل شئ هان لديها فى سبيل تحقيق فكرتها تلك المجنونة وإشباع غريزة الأمومة بداخلها.

***

الفصل الحادي عشر

ثكلت امرأة وليدها الوحيد ، فبكت بكاءً مراً،
فقالوا لها اذهبى إلى الحكيم بوذا
فهو قادر على أن يعيد إليه الحياة .
فطلب منها بوذا أن تأتى له بمقدار من حب
الخردل شريطة أن يكون من بيت لم يمت
منه أحد .فطافت البيوت ولم تجد بيتاً لم
يمت فيه أحد .
ففهمت مقصد الحكيم ، ورضيت بالأمر .

الطفلة إيفا المستنسخة ..!

كان واجماً طوال الطريق حتى فزع فى وجهها :

ــ مستحيل مشاركتك فى هذه المهزلة .

ــ أية مهزلة تلك التى تتحدث عنها ؟

ــ أتظنين أننى سأظل ألبى رغباتك تلك بدون تفكير؟ ماذا بكِ ؟ بل ماذا دهاكِ ؟ إن رغبتك فى الأمومة تجعلك تقولين شططاً ، وترغبين عجباً ، استنساخ ابنتنا الميتة !! لماذا ؟ لسنا أول ، ولا آخر من تموت طفلتهما الوحيدة !!



– ولكننى الأم الوحيدة التى ثكلت ابنتها ولن تنجب سواها أبداً .. فأنت لا تشعر بى ، فقلبى يحترق بفراقها ، ولن أستطيع تعويضها .

وراحت تنتحب وارتفع عويلها ليملأ كل شئ حوله فعاد يهدئها قائلاً :

– يا حبيبتى ، كل نار ، تهدأ لتصبح رماداً ، ومن المستحيل أن تظلى هكذا .

– ولكن نار فراقها ستظل مشتعلة لتأكل كل ما تبقى لى فى هذه الدنيا ، حتى ألحق بها.

وارتفع صوت بكائها ، فاقترب منها قائلاً :

– أهدئى يا حبيبتى ، وافعلى ما تشائين .

ومسح دموعها ثم راح كعادته يداعبها قائلاً :

– ألا ترين أننا لأول مرة ننزل روما ، فهيا بنا نتنزه فى شوارعها ، علك تنسين قليلاً ، أو تهدئى .



أسرعت مهرولة إلى فراشها قائلة :

ـــ كلا ، لا أستطيع ، فأنا استعجل الغد ،حتى أقابل الدكتور أنتينورى و ..

قاطعها متعجباً :

ـــ لكن الساعة لا تزال الخامسة مساءً .

تثاقلت قائلة :

ـــ كم يمضى الوقت بطيئاً ، لكننى سأحاول النوم الآن حتى أتعجل الغد ، ولا أريد أن استيقظ إلا غداً .

ثم تحركت عيناها الحائرتان يميناً وشمالاً تسأله :

ـــ أتظن أنه سيرفض ؟ يجيبها بثقة وسخرية كعادته المعهودة:

ـــ يرفض ! يرفض فرصة جاءته دون كد أو بحث ، تجربة سيتقاضى عنها أجراً ، تجربة وبحث وعينات نوفرها له ، بل ونفقاتها وأجره أيضاً ، يرفض كيف ونحن فئران



تجاربه ، جئنا إليه طوعاً منا ، لا كرهاً ، بل والأكثر من ذلك عجباً أننا سندفع له ثمن ذلك أيضاً ، وتتوقعين الرفض ، كلا يا حبيبتى ، قطعاً لن يرفض ، وسيقبل راضياً مغتبطاً كل الاغتباط بذلك ولا مراء فى ذلك يا حبيبتى .

كم يمر عليها الوقت بطيئاً ثقيلاً ، وبدت لها الثوان ساعات بل أيام وليال ، بل أحياناً ما تخال عقارب الساعة وقد توقفت عن الدوران ، كانت عيناها لا تغفلان لحظة واحدة عنها فهما تراقبانها .

وعاشت ساعاتها تلك فى صراع مع الزمن ، ما بين الأمل والرجاء .

وراحت تتخيل طفلتها الوحيدة ، تداعبها ، تلاحقها ، لتحرك المياه الساكنة الراكدة فى بركتها لتبعث فيها الحياة من جديد.

***



دخل أنتينورى وزوجه المعمل ، بعد أن قص عليها كل شئ ، فهى تشاركه فى كل شئ ، كانت تجربة شيقة ، ورغم أنها كانت بمثابة المغامرة إلا أنها ليست خاسرة على كل حال . أخرجت زوجته ملفاً جديداً من أحد أدراج طاولة المعمل الطويلة والممتدة بطول الغرفة ، وكتبت عنواناً وبيانات وتاريخ :" إيفا المصرية حواء ٢٠٠٠ " .

وراحت تنقل وتدون سائر التجارب السابقة التى أجريت من قبل لاستنساخ البشر من عظام الموتى والخلايا المخزنة فى بنوك الأجنة والأعضاء وغيرها. كانت هذه هى المحاولة رقم أربعمائة بعد الألف فى حالات الموتى وطوت الملف فرحة مستبشرة وتوجهت إلى أنتينورى قائلة :

ــ هل حددت موعد السفر إلى القاهرة لنزع العينات ؟

ــ اننى سأسافر وأعود فى ذات اليوم قدر إمكانى

ولفت ذراعها حوله وهى تقول :

ــ كم أنا متفائلة لهذه التجربة يا انتينورى ، أنها



ستجعل للموت علاجاً .

— بل سيكون الموت مجرد مرحلة انتقال من جسد لآخر ، ليتحقق الحلم الأبدى .

وغادر الثلاثة إيطاليا سوياً ، على أن يعود هو بمفرده حتى يتم إعداد وتجهيز المادة الوراثية وزرعها فى إحدى البويضات المجمدة بعد تفريغها وتوفير الأنثى البديلة لحمل البويضة بعد إجراء كافة التحاليل والفحوص عليها والاتفاق معها ، وحذرهم بشدة لخطورة الأمر وعدم إطلاع أى أحد على هذا السر وتلك التجربة .

وبدون تردد أو خوف قبلت المغامرة .. فى غاية من السرية .. فالأمر بحاجة إلى فتح قبر الطفلة وعزل المادة الوراثية منها . مرة أخرى .. داعبت الأيام الأم ، ولوحت لها بإشارة .. مجرد إشارة بعودة طفلتها لتشرق شمس حياتها من جديد .

***



كانت فى كل خطوة عذاب دونه عذاب جهنم .هكذا قدر لها وحدها دون سائر البشر ، أن تعانى مثل هذه المعاناة ، وكأنها الضريبة الفادحة لأحلامها الغريبة .

فقدر ما نحقق من أحلام قدر تضحياتنا ودفع مقابل ما نتمنى .. ولكن هل رغبتها تلك فى الأمومة كانت مجرد حلم جميل تسعى لتحقيقه ، أم كانت مجرد رغبة شيطانية تملكتها ، فراحت تعبث بها لتحطم فى سبيلها كل شئ ، من حواجز وموانع وقيود . هل تدفع الغرائز والأنانية الإنسان للتضحية بكل شئ فى سبيل تحقيق ما يرغب ، ناسياً ، متجاهلاً الدين ، العرف ، المجتمع والناس ؟

كان عليها الانتظار ، لتعانى مرارته وقسوته ، فلم تخل أية خطوة من الانتظار حتى أصبحت لا تعرف شيئاً فى حياتها سوى الانتظار ، والترقب ، والخوف من النتائج المتوقعة .

أصبحت تشعر بالحياة ، وبأنها مازالت تعيش ، ولكن



أية حياة تلك التى تحياها ، حياة تخلو من كل شئ عدا الانتظار والخوف والقلق .

وانبعثت رائحة الأموات من بين القبور ، لتثير فى نفسها الرعب والذعر من جديد .

وتحيطها الأشباح من كل جانب ، والخراب والتراب ، وعواء الذئاب ومواء القطط . ومن بين كل هؤلاء كان صراخ طفلتها يدوى ، يناديها . لقد جفت عيناها من الدموع ، ولم يبق بعينيها ما يعينها على الحزن ويريحها من هذا القدر الهائل من العذاب . وكيف أستطاع الزوج إقناع حارس القبور بفتح المقبرة ، زاعماً أن هناك سحراً ، وعملاً مدفوناً ولإبطاله لابد من أخذ شيئاً ما من جثة الطفلة .

لم يوافق الحارس إلا بعد أن تقاضى مقابل ذلك مبلغاً كثيراً من المال .. وقبل الحارس فتح المقبرة بدون تصريح على أن يتم فتح المقبرة ليلاً .

***



وفتحت المقبرة .. وللمرة الثانية .. لكن هذه المرة لم يكن الوقت نهاراً ونزل الحارس ، وصعد حاملاً جثة الطفلة فهى الجثة الوحيدة الراقدة فى تلك المقبرة .

تم إغلاق حوش المقبرة ، وتركت الأم وحدها فى السيارة بعيداً عن المقبرة ، وأخرج أنتينورى عدة بسيطة لأدوات التشريح ، وتم نزع عدة عينات وقطع دقيقة مختلفة من عظام الطفلة وبقايا اعضائها المختلفة ، ثم وضعها فى أنابيب دقيقة الحجم بعد أن كتب عليها بيانات ورموز وحروف خاصة بها ، ثم أعاد الحارس جثة الطفلة لموضعها لترقد من جديد وسط المقبرة المظلمة وخرج الثلاثة ، واجمين ، خائفين ، بل ويملؤهم الذعر والفزع . أتراه فزع القبور ؟ أم فزع الموت وفكرته ؟

فى السيارة سأل الزوج الطبيب متى يرغب فى التوجه لمطار القاهرة . فقد كان عليه التوجه أولاً إلى مركز البحوث العلمي ، لحفظ العينات بطريقة محددة ثم التوجه فى الصباح



الباكر للمطار قبل موعد الطائرة بساعتين . وصل الطبيب إلى حيث يرغب .

وعادت الأم من جديد ، لتعيش لحظة دفن طفلتها مرة أخرى ، وكأنها فقدتها الآن . الآن فقط ، وقد تركتها وحدها فى الظلام الدامس ، وسط ـــ المقبرة ـــ الغرفة الموحشة .

وارتعدت ..

لكن .. هذه المرة فقدت قواها على الصراخ والعويل .. فلم تستطع حتى البكاء ، بعد أن جفت عيناها ، فقد كانت أقرب للموتى منها إلى الحياة .

يجرها زوجها من ذراعها جراً .. فتسير معه تائهة الفكر ، شاردة الذهن ، خائفة ، مذعورة ، وكأنها فى عالم غير ذاك العالم الذى نحياه. كانت لا تبرح غرفتها .. واجمة ، شاردة .



تجلس فى مقعدها الوثير المعتاد بجوار الهاتف . منتظرة من حين لآخر اتصال انتينورى ليخبرها بأنه تم العثور على المرأة البديلة التى سيزرع فيها البويضة الحاملة للمادة الوراثية للطفلة الميتة .

وبعد أسبوع من الانتظار دق جرس الهاتف ليزف إليها خبر العثور على دنيا " الأم البديلة " ، وأنه لابد من السفر لتوقيع العقد بينهما .

كان لا شئ يعيد إليها فكرها وتركيزها إلا كل ما يتعلق بعودة طفلتها للحياة .

وكان انتينورى وزوجته لا يقلان حرصاً وطمعاً فى نجاح التجربة عنها.

فهى تجربة حياته وحلمه فى تحقيق الأبدية وهى حلم حياتها فى تحقيق غريزتها الأمومية .. فكلاهما حريص على إتمامها.



قام زوجها بتأجير سيارة مباشرة فور وصوله مطار روما .. وأصرت الأم على مقابلة الطبيب أولاً ، ثم التوجه للفندق بعد الاطمئنان على كل شئ .

بالفعل قطعت السيارة طريق روما الدولى ماراً بميدان الفاتيكان وساحة مصارعة العبيد مع الحيوانات ومرا بنافورة الأحلام وتمثال هيرودت ذى الوجه المغطى وقرية تيفولى وفيلا ديستى ذات الثلاثة آلاف نافورة وميدان الشعب وفيلا سافوى وهو القصر الملكى الذى تقع فيه السفارة المصرية وأكبر سوق فى روما وهى سوق بورتا بورتيزى ــ كان يدعى سوق السارقين سابقاً ــ وشارع السهر فينيتو وقهوة بارى والتى تدعى قهوة الملك فاروق ثم وصلوا إلى فندق سافوى .

وبالفعل توجه الزوج إلى معمل انتينورى بعد الاتصال به من المطار ليكون فى انتظارهما ، كان قلبها يسبق ساقيها وخطواتها .



دخلت كالبرق متوجهة إلى معمله واقتربت منه متسائلة:

ـــ هل نجحت التجربة ؟

ضحك العالم انتينورى بملء فيه لتعجلها النتيجة قائلاً :

ـــ مهلك سيدتى ولتستريحى قليلاً ، لا نستطيع الحكم على التجربة الآن بكل هذه البساطة فالأمر ليس هيناً بسيطاً كما تتوقعين ، فالطريق مازال طويلاً شاقاً حتى الآن ومع ذلك من الممكن القول أن خطواتها حتى الآن ناجحة ، كعزل المادة الوراثية واتمامها والتأكد من عدم تلفها ، وزراعتها فى بويضة خالية مفرغة.

والأهم من كل ذلك سيدتى العثور وإيجاد المرأة التى ستحمل هذه البويضة ، أما بقية خطوات التجربة ، فهى مسألة مازالت فى الغيب ولكن أصعب ما فى الأمر قد تم بنجاح حتى الآن وما عليك إلا الصبر ، فصبراً جميلاً سيدتى ولا تتعجلى الأمور لأنه لابد من الانتظار أيضاً تسعة أشهر.



تنهدت خائفة ، وتحركت نظراتها الحائرة ما بين هذا وذاك .. فأمسك زوجها بيدها متوجهاً إلى أحد المقاعد طويلة الأرجل المعملية ذات القرص الدائرى وأجلسها قائلاً :

ــ يا حبيبتى ليس هناك ما يدعو للقلق ، وكل شئ حتى الآن على ما يرام .

ووجه سؤاله إلى العالم أنتينورى الذى وقف أمام طاولة المعمل يبحث عن ملف الطفلة إيفا حواء ، وجذبه وأقترب منهما .

وراح يقرأ عليهما تفاصيل التجربة ، خطوة ، خطوة ، وكيف تتم المسألة بمنتهى العناية والدقة ، ثم عرض عليها صورة الأم البديلة التى ستحمل البويضة أى الجنين مستقبلاً ، وقرأ بياناتها : ــ أسمها دنيا.

ــ عمرها الخامسة بعد العشرين عاماً.

ــ مولعة بالسفر، غير متزوجة.



ثم نزع صورة من الملف وعرضها على الأم وهو يقول : ــ ها هى .. تلك صورتها .

جذبتها الأم ويداها ترتعشان . ثم خطفها منها العالم وهو يقول :

ــ أين صور الطفلة الميتة ، أريد بعض صورها المختلفة.

فتحت الأم حقيبة يدها وأخرجت منها حافظة جلدية صغيرة بها الكثير من صور طفلتها الراحلة ، فأختار العالم منها خمس صور مختلفة .

ثم نهض واقفاً وأردف يقول :

ــ والآن تستطيعان العودة إلى الفندق لتستريحا من السفر ولتهدئى يا سيدتى ، وكل شئ سيكون على ما يرام ، ولتكونى هنا فى الغد فى تمام الثامنة صباحاً لتوقيع العقد ودفع المقابل .

ــ كم يبلغ المبلغ المطلوب كمقدم ؟



ـ فى الواقع الفتاة طلبت المبلغ كاملاً ، عشرون ألف دولار.

اتسعت عينا الزوج لأقصى ما يستطيع .. فنظرت إليه زوجته بتوسل ألا يرفض ويخيب رجاءها.. فابتلع غضبه لممارسة تلك الحماقة التى سيفقد فيها كل رأسماله فى الحياة إرضاء لها .

كانت تشعر أن الحياة بكل ما فيها ، من أموال لا تعادل عودة طفلتها إلى الحياة ، فكل شئ يهون من أجلها ، ولأول مرة تتحدث ضحية بشئ من اللهفة والأمل فما هى إلا شهور معدودات وستولد ابنتها من جديد ، حبيبتها ، وقرة عينها .

دخلت المعمل . وجدت فتاة شقراء تجلس بثقة وهدوء وبمجرد نظرة خاطفة عرفتها .. فقد رأت صورتها بالأمس .. فكيف تنساها وقد انطبعت ملامحها فى ذاكرتها بمجرد ما وقعت عيناها على صورتها . فابتسمت .. لكن ما بالها لا



تبادلها الابتسام . كانت فاترة ، ويبدو أن لا شئ يعنيها فى هذه الحياة سوى جمع الأموال والسفر والتنزه والتمتع بمتع الحياة الوقتية الزائلة .

لم تقرأ الأم أى بند من بنود العقد ، كانت تنفذ ما يقره العالم دون تدخل أو اعتراض ، متقبلة كل شئ ، كلا .. ليس اضطراراً ، وإنما بكل الرضا والعذوبة واليسر. أما دنيا فقد قبلت المقامرة والمقايضة بكل السعادة والسرور ، ورغم أنها ستظل حبيسة المستشفى وتحت الرعاية المركزة طوال التسعة أشهر إلا إنها اعتبرت المقامرة فى صالحها .. وأنها لابد رابحة ولا شك فى ذلك فتقبلت الأمور بعذوبة وسعادة وكانت لا تعلم شيئا سوى أنها ستحمل فى بويضة تلك المرأة المصرية أى مجرد تأجير رحمها مدة تسعة أشهر.

فهى لم تر أية موانع لذلك وما الذى ستفقده من جراء ذلك فالمسألة عندها لا تخلو من مجرد تجارة ، وأى تجارة



هى ، تجارة وقت فما عساها ألا تقبل ذلك بكل الرضا فهى الرابحة فى كل الأحوال عشرين ألف دولار.

وقبلت المخاطرة بل المقامرة .

وقعت دنيا على العقد وكأنها توقع على بطاقة لحضور حفل عشاء ، أو على قبولها رحلة فى جولة للخارج لمدة تسعة أشهر ، وما العجب فى ذلك ؟

وأقنع الطبيب الأم بضرورة عودتهما إلى القاهرة فليس هناك ما يدعو ويستوجب وجودهما وإلا سيثير ذلك مجالاً لشك الآخرين فى الأمر وفى وجودهما بجوار دنيا .

وأن الأمر لابد وأن يسير بلا اضطراب أو خوف أو قلق . وبعد معاناة شديدة أقتنعت ضحية شريطة أن تطمئن أولاً على نجاح زراعة البويضة وسكنها داخل رحم دنيا.

وبالفعل . راقبت الأم عن كثب لحظات زراعة البويضة التى تحمل المادة الوراثية لطفلتها الراحلة . ولما



أطمأنت على استقرارها وسكنها فى رحم دنيا غادرت روما بعد أسبوعين من زراعتها وعادا إلى القاهرة ، لتلوذ بغرفتها ومقعدها ليعاودها شبح الانتظار من جديد لتعد الثوانى واللحظات من جديد .

وكل يوم يمضى تزداد قلقاً عما سبق .. تخابر الطبيب يومياً لتطمئن على حالة الحمل وأخبار الجنين ولم تفكر يوما فى السؤال عن دنيا وكأنها حضانة صناعية لا يجدر بها السؤال عنها أو التحدث إليها .

***

وبعد إتمام زراعة البويضة المخصبة فى رحمها ، كان كل يوم يمضى يزيدها خوفاً ورهبة .

وراح الجنين ينمو ، يكبر ، يتحرك ، بل و يتقلب ويلعب فى أمان .. فحياته متوقفة على حياتها هى وبقاؤه موقوفاً على بقائها هى .



ولكن ! أتراها تشعر بها الآن فتتألم لألمها ؟ أتراها تحبها كما أحبتها هى ؟ حالة غريبة كانت تتملك دنيا .

جنين يتحرك بداخلها بين أحشائها ، يتغذى من دمائها ، تقيه السموم وتلفظها عنه ، يعيش ساكناً هادئاً داخلها هى .

تتغير معالم وتضاريس جسدها تمهيداً لأمومتها التى راحت تسرى فى عروقها دون أن تدرى . جنين ما ، غريباً عنها يملؤها شعور بالحب والشوق إليه.

كيف حدث هذا ؟ وهل حقاً هو غريب عنها ؟

لم يخبرها أحد عن سر الأمومة ولغز تلك الغريزة التى راحت تبث بداخلها حباً وخوفاً لم تعرفه من قبل .

حنين ما يسرى فى أوصالها .. يمنعها تسليم ما فى بطنها محرراً منها ، تراها فى شاشة الفحص الطبية مغمضة العينين فى وضع القرفصاء ويربطها الحبل السرى ليغذيها.

كم يمر الوقت سريعاً. تسعة أشهر مضت بسرعة



كيوم أو بعض يوم . وكلما خلت إلى نفسها تحدث طفلتها الراقدة فيها وتلاطفها وكأنها تسمعها . ثم فجأة يملؤها الحزن عندما تتذكر أنها مجرد حضانة صناعية لطفلة سينتزعونها بمجرد ولادتها. كم تمنت لو استطاعت أن تطيل فترة الحمل وتؤخر الولادة .. علها لا تفقدها ، ولا تفرط فيها .

ولكن ! كيف السبيل إلى ذلك والعقد يحول دون تحقيق ما تصبو إليه ؟ أى شيطان ذلك الذى ساعدها على التوقيع على مثل هذا العقد ، الذى سيحرمها من طفلتها ؟

من أين نشأ هذا الحب الكبير الذى بات يجمعهما ؟

تضع كفيها على بطنها وتهمس بتلطف :

ــ أتسمعين يا حبيبتى ؟ متى سأراك تلعبين أمامى وبين ذراعى ؟ متى تأتين لأنعم بكِ وبصحبتكِ ؟ إننى على استعداد للتضحية بكل شئ فى سبيلك . وبإصرار وعزم تقرر: ولن يأخذوك منى .



ما بالها لا تشعر بالألم الذى تشعر وتعانى منه كل أم حامل ؟ ما بال خوفها وقلقها يفوق وهنها فلا تشعر بالوقت وثقله ويمر سريعاً على غير العادة ؟ لقد أحبتها قبل رؤيتها. وكيف أصبحت تحمل لها كل هذا القدر الهائل من الحب وهى لم ترها بعد ؟ كانت حالتها غير كل تلك الحالات التى ألفناها لذوى الحمل ، فلم تتمن أن تمر فترة الحمل الشاقة بسرعة كسائر النساء فكل حامل تشعر بأن الوقت يمر بطيئاً ، مرهقاً ، موهناً ولكن ما بالها لا تشعر بكل هذا وما بال الوقت يمر هكذا بسرعة والشهور تمضى وكأنها ثوان ، حتى قرب موعدها مع الموت .

أجل .. فهو بالنسبة لها الموت بعينه ، يوم يأخذون ضناها ومولودها منها. يوقظها ضميرها :

ــ لكن هناك عقد موقع ، وتقاضيت على ذلك المبلغ مقدماً.

تضع أناملها على بطنها ، تحركها وكأنها تتحسس طفلتها لترد عنها :



ـ أنتِ .. أنتِ وحدكِ التى تسمعين قلبى الآن ، وتشعرين بى ، فأنا أعطيكِ وأغذيكِ من دمى وجسدى ، فأنت منى ، أجل جزء منى أنا ، ولن يأخذوك منى أبداً .

يعود ضميرها يسألها :

ـ لقد وثق العقد ، ببنود وشروط حادة ، وميعاد محدد، ولن تستطيعى الإفلات ، ومبادئنا مبعثها القانون لا الشرع ، والقانون هنا حاسم ، رادع ، قاطع ، وأنت وافقت وقبلت وقبضت ، فلن تستطيعى الإفلات من العدالة وتنفيذ شروط العقد .

ـ أية عدالة تتحدث عنها ؟

ـ عدالة تنفيذ العقود ، أم تظنين أن الأمر هين وسيمر بهذه البساطة التى فى مخيلتك ، وأن المسألة كلها لا تزيد عن كونها مجرد رحلة لإنجاب طفلة غريبة عنك .

ـ إنها طفلتى أنا.



ــ ستكون نسخة طبق الأصل من أمها ، صاحبة البويضة.

ــ وهل يصح أن تكون الأم هى البويضة ؟

فهناك العديد من البويضات التى تفقد من كل سيدة أو أنثى دون جدوى ، أنطلق على كل بويضة لقب أم ؟

ــ لكن البويضة حاملة المادة الوراثية التى ستورث فيما بعد .. وأنتِ مجرد وعاء ، فأنت حضانة ، ولا تزيدين عن وعاء مكيف ومجهز طبيعياً وعاء مؤقت .

ــ مستحيل ، فأنا حاضنة ولست حضانة ، أنا أم .

***

الفصل الثاني عشر

عن عائشة رضى الله عنها قالت :

قال رسول الله ﷺ: (يَحرُم من الرضاعة ما يَحرُم من الولادة ، وفى رواية أخرى يَحرُم من الرضاعة ما يَحرُم من النسب) (متفق عليه).

صدق رسول الله ﷺ .



الأم البديلة ..!

وحان وقت الميلاد والموت ..

ما باله يأتى مسرعاً هكذا، وكأنه يتضافر معهم على قتلها..! وجاءت الطفلة خمرية اللون سوداء الشعر وارتفع صراخها ..ونهضت دنيا من فراشها بلا أوجاع أو آلام تبحث عن طفلتها ، وقبل أن تندفع خارج غرفتها أعادوها إليها قائلين :

ـ اسمها أشجان .. ها هى .. وعليك مراعاتها حتى تأتى أمها.

وكم تمنت ألا تأتى تلك السيدة التى تزعم أمومتها .



أخفى العالم أنتينورى خبر الولادة عن الأم حتى تستطيع المولودة أخذ قسط من لبن الأم البديلة وبعد الاطمئنان على حالة المولودة طلب من الأم السفر والحضور لتسلم بضاعتها الطفلة المستنسخة أشجان .

التقت دنيا بالعالم أنتينورى وهو يقوم بفحص المولودة فى أوقات محددة من الساعات ، ويدون كاتباً ملاحظاته فى ملف إيفا حواء المصرية .

سألته دنيا :

ــ أليس من حقى التراجع ورد المبلغ الذى تقاضيته مقابل أن يتركوها لى .

نظر إليها أنتينورى مندهشاً :

ــ ما الذى تقولين ؟ بالقطع مستحيل ، لأنها ليست ابنتك لكنها ابنتها هى .

ــ لكنه لولا وجودى وبقائى على قيد الحياة طوال



فترة الحمل ما خرجت إلى الوجود .

ــ كانت ستجد غيرك لتؤدى الدور والمهمة التى قمت بها.

ــ لكن !

ــ لكنك سيدتى قبلت العرض ،

وليس هناك مجال للتراجع ياعزيزتى .

وكم من مرة وتحاول دنيا الهرب من المستشفى دون جدوى.

ونجحت التجربة وأُعلن الحرب على الأم منذ نجاحها ومرة أخرى خرجت أشجان إلى الوجود بعينيها السوداوين وشعرها الأسود الناعم ولونها الخمرى الجذاب وضحكتها الشقية الساحرة .. لتخطفها الأم البديلة الحاضنة بحجة حملها وهنا على وهن وعادت الأرض لتهتز من تحت قدميها من جديد لتصارع من اجل ابنتها .



واندفعت الأم فى اتجاه الطفلة المولودة ، تزفها الفرحة وبسرعة خطفتها دنيا مبتعدة بها عن الجميع حيث أجتمع الزوج والطبيب وزوجه ودنيا الأم المدعية.

وفوجىء الجميع بأن دنيا ترفع مسدساً على الجميع وتهددهم بالقتل إذا تجرأ أحد واقترب منها لأخذ الطفلة .

عالج أنتينورى الموقف بحكمة ورشد مهدئاً الأم تارة ومهدئاً دنيا تارة أخرى . فقال للأم :

ــ لا داعى لاستخدام القوة والعنف معها ، فالطفلة من حقك وأنا شاهد على ذلك .

وخرج الجميع بعد أن تركوا خلفهم زوبعة من العاصفة لم تهدأ بعد . ضمت دنيا أشجان إلى صدرها بحنان أم لم تعهده من قبل ، لقد فقدت حبيبها من قبل ، كانت تظن أن حبها السابق شمل العالم كله بشتى أنواعه وبكل صوره وألوانه ولكن ما بال هذا الحب الكبير يفوق الخيال ، الحب الذى تشعر به مع هذه الطفلة التى لا حول لها ولا قوة .

مستحيل أن تتنازل عنها وهى التى سكنت بداخلها هى وحدها . وكبرت ، ونمت داخلها دون الآخرين .

وقررت الأم ألا تعود للقاهرة بدون طفلتها واندلعت الحرب من جديد . وجاءت معركتها الثانية لمواجهة الحياة ، لتصارع من أجل طفلتها ورّفع الأمر للقضاء للفصل فى المسألة . وفى بلد العجائب يمكن فعل أى شئ وتحقيق أى حلم إلا تجاوز القانون .

وتم التحفظ على الأم البديلة ــ هكذا يسمون صاحبة الرحم المؤجر ــ والطفلة تحت الحراسة فى المستشفى ، ووكلت كل منهما محامياً للدفاع عن حقها فى المولودة الصغيرة .

اقترب أنتينورى من الأم الشرقية قائلاً لها أثناء زيارتها لرؤية الطفلة :

ــ إذا أردنا أن نتحدث بالحق والواقع فالحقيقة أن الطفلة ليست من حقك وإنما من حق دنيا .



فزعت الأم لمقولته تلك فرددت متسائلة بغضب :

ـ كيف ؟

ـ فأنت لست صاحبة البويضة ،

كما أنك لست صاحبة المادة الوراثية.

ـ وهى كذلك ..

ليست صاحبة المادة الوراثية ولا البويضة .

ـ لكنها حملتها تسعة أشهر فى رحمها.

ـ وعاء ، مجرد وعاء لبويضة لا يربطها بها أية صلة ، حضانة ، مؤجرة ، وقد تقاضت ثمناً لذلك .

ـ إذا سلمنا بأنها كانت حضانة ، فيكن لها دور فى إنجابها ، أما أنت فليس لك أى دور ، وفى هذه الحال يصبح لها الحق فى الطفلة أكثر منك .

ـ كيف ؟ لم يكن لى أى دور ؟ ألست سبباً فى هذه المادة الأصلية الوراثية التى تشكلت منها الطفلة .



بثقة يجيبها :

ـ كلا سيدتى ، فالمادة الوراثية ليست مادتك ، ولكنها مادة غريبة عنك لأنها مادة وأصل للطفلة الراحلة المنزوعة منها.

ـ ولكنها طفلتى .

ـ علمياً ليست المستنسخة طفلتك لأنها توءم طفلتك أى شقيقة ابنتك ، فلست أماً لها .

ـ مستحيل .

ـ هو الواقع دائما مؤلم ومفزع ، وإذا فحص هذا الأمر واكتشف أن المادة الوراثية ليست مادتك سيكون الأمر صعباً للغاية وفى هذه الحال ، لن يكون هناك مفر من الإذعان للحكم أو تسوية الأمر بالتفاهم مع أمها.

ـ لا تقل أمها .. فأنا أمها .



ـــ سيدتى ، ليس لدينا متسع من الوقت للعناد والكبر، فالمسألة تزداد تعقيداً ولا بد من المرونة للبحث والوصول إلى حل ما ، ولقد أوضحت لك المسألة وألتفت متوجهاً للخروج من المعمل .

أسرعت تلاحقه قائلة :

ـــ أرجوك ، مهلاً ، فما الحل إذن ؟

وهل يمكن أن تحول دون الكشف عن ذلك ، أقصد ، الأصول الوراثية ؟

ـــ بالقطع ممكن .. وسيتم طرح هذه المسألة وعرضها على المستشارين العلميين لفحص الخريطة الوراثية لكل من الأم والطفلة وربما للأب أيضاً ، وهذا أمر ليس بحاجة لوقت طويل ، ولكنه سيتم بأخذ خلية من كل منهما ولتكن عينة من الدم وعزل المادة الوراثية لكل منهما الطفلة والاب وفحص الخريطة الوراثية ومطابقة تلك الخريطة الوراثية للطفلة لكل



من الأم والأب وقطعاً سيسفر الكشف عن الحقيقة وأن المادة الوراثية للطفلة ليست لاحداكما وإنما غريبة عنكما.

ــ قطعاً سيستدعونك ، أليس كذلك ؟

ــ دعيني أفكر وأسأل المحامى عله يجد لنا مخرجاً .

ــ بل لابد وأن تجد لنا مخرجا . كما أنه من المستحيل معرفة أمر الاستنساخ فلا أحد يعرف سر استنساخ الطفلة الميتة وكل ما يُعرف هو أننى صاحبة البويضة بالمادة الوراثية ومن الممكن ادعاء أن البويضة ملقحة ومخصبة تلقيحا عادياً وليست منزوعة من خلية جسدية ، فيتعذر عليهم كشف هذا الأمر إذن .

ــ كلا .. كلا ..! لن يصعب عليهم كشف هذا الأمر .. فما أيسره الآن .

حملت دنيا طفلتها بين أحضانها تكاد تخفيها ، وجاءت ضحية الشرقية لتبدأ معركتها من جديد والمعركة هذه المرة مع امرأة غربية فهى معركة وحرب غير متكافئة.



امرأتان .

امرأة شرقية ..! تعيش فى ظل رجل .. تفكر بقلبها وتحب بعقلها . وكل رأسمالها فى الحياة هو العاطفة ، فهى تعيش من أجل الرجل أولاً ثم من أجل أطفالها أولاً وأخيراً.

أسيرة هذا الحب . ومع امرأة عاطفية جميلة ، لا تعرف من الدنيا شيئاً سوى الحب والعطاء وانتظاره ، والعيش من أجله . تارة فى صورة رجل وأخرى فى صورة طفل ..!

المهم .. أنها تعيش من أجل آخر وفى ظل آخر ، وليس من أجل نفسها .

فالحرب هنا ليست متكافئة ، إذ كيف ستتعارك امرأتان ؟ امرأة واقعية قوية ، تعيش من أجل نفسها وحسب ، وتسخر كل الأشياء لخدمتها ، حرة .. وليست أمة ، امرأة تختار ، بل وتملك القدرة على الاختيار.



وامرأة تخضع لكل طريق تقذف بها فيه الحياة . والحياة يحكمها قانون البقاء للأقوى . وليس هناك قانون من أجل الحب والرق والعبودية .

***

امتلأت قاعة المحكمة بالناس الذين أتوا ليستمعوا لقضية لم تطرح من قبل .

وقبل أن تدافع الأم المدعية الشرقية عن طفلتها سبقتها دموعها .قال محاميها مدافعاً عنها :

ـــ لقد وقعت موكلتى على عقد الإيجار الذى أخلت بتنفيذه السيدة الحاضنة فهذه السيدة مجرد وعاء ، حضانة ، لمدة ..

قاطعته دنيا صارخة :

ـــ كلا ، لست حضانة ، إنها ابنتى ، ولست وعاء .

وجه لها المحامى سؤاله :



ـــ أين كانت مشاعرك تلك وأنت توقعين العقد ؟ ألستِ رشيدة ؟ لقد قبلت تأجير رحمك من أجل المال ، فأنت لست أما .. لأن الأم الحقيقية هى صاحبة البويضة واهبة المادة الوراثية ، والمادة الوراثية الأصلية توجد بالبويضة .

ـــ ولكننى حملتها وهناً على وهن ، وغذيتها من دمى وجسدى ، ونمت ، وأكتمل نموها بداخلى أنا ، لقد حملتها تسعة أشهر.

تدخل القاضى وهو يشير إلى العقد موجهاً إليها السؤال :

ـــ هل هذا هو توقيعك ؟

ـــ نعم سيدى ، ولكننى لم أدرك بعد أننى سأحب طفلتى ، لم أدرك أننى سأحمل لها كل هذا القدر الهائل من الحب ، لم أفهم معنى الأمومة إلا بعد أن تحركت بداخلى ، لقد توقفت حياتها على وجودى وبقائى .



ولم ينتبه أحد من القضاة بأن الأم الشرقية ليست صاحبة البويضة والمادة الوراثية إذ لم يشر أحد فى المذكرة المعروضة بذلك ، واعتبروا أن الأم الشرقية لابد وأن تكون صاحبة البويضة وإلا فما الداعى لدفع هذه المبالغ الباهظة لتأجير رحم أخرى ، والمقامرة بذلك .

وحكمت المحكمة بأن الطفلة ابنة لصاحبة البويضة (أى صاحبة المادة الوراثية) ومنح السيدة البديلة حق رعايتها وإرضاعها فى حالة موافقة الأم فقط .

صرخت دنيا مستحيل . إنها ابنتى أنا . وجرت بطريقة عشوائية يميناً وشمالاً.. بحثاً عن ملاذ يحميها منهم. ونزعوا منها الطفلة بعنف ، وصرخت صرخة مدوية أفزعت كل من فى القاعة. وصرخت الطفلة بدورها وكأنها ترفض هذا الحكم وتوالت صرخاتها بحثاً عن هذا الدفء الذى سرعان ما افتقدته بحرمانها منها.



وبسرعة ذهبت الأم تحمل الطفلة وقد طلبت تعيين حراسة عليها خوفاً من اختطاف الطفلة ، حتى يصعدوا الطائرة وتقلع بهم وفشلت دنيا فى محاولة مرافقة الطفلة.

كانت الفرحة تغمر الأم من كل جانب ، وبسرعة حزما أمتعتهما ، ولكن ما بال الطفلة لا تكف عن البكاء والصراخ وبمجرد وصولهم إلى الفندق .

أعلنت الأم البحث عن مرضعة مقيمة للطفلة المولودة .

***

وكم عدد المرضعات اللاتى تم فحصهن وإجراء التحاليل عليهن ، لكن الطفلة لم تستجب لإحداهن . رافضة كل الأثداء الغريبة عنها ، وكأنها تبحث عن رائحة أمها .. ودفء صدرها .



وكلما اقتربت مرضعة من الطفلة وقدمت لها ثديها ذعرت الطفلة وأبعدت فمها عنها .. نافرة منه ، معلنة بذلك الرفض التام بالصراخ والبكاء .

أبلغت الأم أنتينورى بذلك .

حذرها من عدم إرضاع الطفلة طوال هذه الساعات المتواصلة وبأنها من الممكن أن تفقدها وأنه لا حل لديها سوى الإذعان لرأيه بأن تتخذ من دنيا مرضعة ومربية مقيمة دائمة لها.

ولم يكن هناك مفر من الإذعان لاقتراحه . ففى الرضوخ والاستسلام للأمر الواقع .

ترفع دنيا سماعة الهاتف . تبتسم مهللة وهى تمسح دموعها قائلة :

ـــ مجرد ما يقطعه الطريق من وقت سأكون عندكم.

لم تفكر أو تتردد أو تأخذ أى شئ من أمتعتها فقط فتحت درج كتبها وبعثرت ما به بحثاً عن جواز سفرها .



جمعت كل ما لديها من نقود وأسرعت تركب سيارتها يرافقها محاميها ووكلها.

وأخذت فى أثناء طريقها للفندق تشرح له المهمة التى توكلها له وكيف سيحول رصيدها إلى القاهرة ويصفى كل متعلقاتها من بيع السيارة والبيت وليترك فقط البيت الصغير الذى يقع فى (قرية تيبلى إحدى ضواحى روما) ليبقى تحت رعايته دائماً .

دخلت الفندق متوجهة للجناح الذى تنتظرها فيه طفلتها . دخلت متوجهة فى أتجاه الصراخ والبكاء .

فهى وحدها التى لا تخطئ فى تمييز صوت طفلتها وبكائها .. كانت تحمل بين يديها القرد الصغير الشقى صديقها.

أسرعت بفتح الغرفة دون استئذان وجذبت الطفلة بين أحضانها .. وبسرعة هدأت الطفلة وكفت عن البكاء



والصراخ .. ومسحت دموعها فى صدرها كقطة تختبئ فيه بحثاً عن طعامها ومأواها .

جلست دنيا ترضعها وهى تضمها بحب وسعادة لم تعهدهما من قبل وكيف لا تسعد وقد ردّت إليها روحها بعودتها ؟

غارت الأم من هذا المشهد البديع الذى حرمت منه ، ونظرت إليها نظرة لا تخلو من الحسد علاوة على الحسرة التى أمتلأت بها عيناها.

تحدثت دنيا بهدوء قائلة بالإنجليزية :

ـــ أرجو منكم أن يكون السفر غداً .. ليلاً حتى أتمكن من تصفية متعلقاتى ، وتسليم المحامى بقية أوراقى لمتابعة بعض الشئون التى سأتركها له .

اقتربت منها الأم قائلة بلهجة تملؤها الغيرة والحقد والتحدى :



ـــ لا داعى لتصفية كل متعلقاتك لأنك ستعيشين حتى فصال الطفلة .. أى لمدة عامين فقط .. وسنطلق بعدها سراحك .

لم تعر دنيا كلماتها أدنى اهتمام وقابلتها بدون اكتراث فقد كانت فى حالة من السعادة والنشوة بحيث لا تود أن يعكر صفوها أحد . جذب الزوج امرأته من معصمها بقسوة وهو يقول : ـــ ضحية ، ماذا بك ؟ لقد أنقذت الطفلة ، وقد كادت تضيع من بين أيدينا ، ألا تحمدين الله على كل هذا ؟ ألا تصلين شكراً لله لستره علينا بعدم كشف الأمر بفحص ومطابقة الخريطة الوراثية.

فزعت ، صارخة فى وجهه وهى تضع أناملها على فمه منعا لإتمام أقواله تلك :

ـــ كف عن هذا الحديث ، وانس هذا الموضوع تماماً ، ولا تردده مطلقا ، حتى بينك وبين نفسك .. أتوسل إليك ، لا تضيع مجهودنا .. وإلا سيصبح هباءً منثوراً.



ـ إذن كفى أنتِ عن هذه القسوة لدنيا وأعذريها يا عزيزتى ، لأنها أم .

ـ أم ، أنت أيضاً تخالها أما لطفلتى ؟ كيف تكون هى أم وأنا من أكون إذن ؟

ـ لكنها حملتها وهناً على وهن ، تسعة أشهر فهى أم ولا شك فى ذلك ، ألا تفهمين ؟! الأم هى التى تحمل ، وتلد ، وترضع . ويكفيك شاهداً على ذلك الحب ما فعلته من تضحية فى سبيل طفلتها .

ـ أية تضحية تلك التى تقصدها ؟

ـ تضحيتها ببلدها وطنها وتصفية كل ممتلكاتها لتأتى فى صحبتها ! ألا يكفيك هذا دليلاً وشاهداً على أمومتها ؟ لماذا تنكرين كل ذلك ؟

ضحكت بسخرية ، وارتفع صوت ضحكاتها المليئة بالمرارة والقسوة وهى تقول :



ـــ تضحيتها !! يالك من ساذج برئ ، إنها ياعزيزى تحب السفر ، مولعة بالرحلات والمغامرات ، خاصة بلد الفراعنة ، وجاءتها الرحلة مجاناً بل والعجيب أنها تقاضت ثمناً مقابل رحلتها تلك والأدهش من كل ذلك تقاضيها ثمناً لمغامرتها الجديدة ولعبتها بالعروس المتحركة ، الناطقة ، الصغيرة أشجان ، وتمسكها بها كدمية ، لقد أغرتها اللعبة ، لعبة الأمومة التى دفعنا لها مقابلها.

وبانكسار وتخاذل أردفت :

ـــ أما أنا ، فنسيت تضحياتى ، وعذابى ، نسيت حرمانى من وحيدتى .

ـــ ضحية ، حبيبتى ، إذا كنت تحبين الطفلة فلابد من الوفاق مع دنيا ولا تكدرين حياتها ، لأن الطفلة يجب الا ترضع لبناً مكدراً بالحزن والشقاء .



فعلينا ، كلنا ، تحمل كل شئ فى سبيل هذه الطفلة ، فكم هى غالية ، باهظة التكاليف ، فكم كلفتنا تلك المقامرة ، ولا نعرف حتى الآن أن ما فعلناه حلال أم حرام ؟!

انفعلت للهجته تلك قائلة :

ــ ماذا بكَ ؟ بل ماذا أصابك ؟ ألن تكف عن هذا الهراء ، كل شئ تم بإرادة الله ، ومن المؤكد أنه حلال ، ولا شك فى ذلك ، لأنها من ابنتنا ، وليست غريبة عنا ، فليس هناك من خلط أنساب ، وأرجوك دع هذا الأمر ولا تفكر فيه، وفكر فى صغيرتنا تلك ، التى ستكون نسخة طبق الأصل من فقيدتنا الصغيرة ، كلا ، بل ستكون هى نفسها ، فلم تعد راحلة الآن لأنها عادت إلينا بعد طول غياب . ونسيت مشكلتها وقضيتها مع دنيا فى ظل تحقيق هذا الحلم الذى أصبح حقيقة ، هائلة ، لقد تحقق أملها ، الذى ظنت أنه مستحيل . وحملقت فى زوجها وعيناها تلمعان من الفرحة وهى تقول :



ـــ كلا ، يا حبيبى ، فليس هناك ما يسمى مستحيل ، فلقد حققت لى كل شئ ، وتحملت عذابى ، وهواجسى ، وكم شقيت معى فى تحقيق أحلامى ، ولكن ها نحن نجنى ثمار تعبنا وشقائنا ، وتضحياتنا.

وبمجرد أن نامت الطفلة بين ذراعى دنيا خرجت دنيا لتكملة أوراقها مع المحامى ، كانت مجرد ساعتين غابتهما عن الطفلة ، بينما استيقظت الطفلة ، فشعرت بالخوف بعيداً عن حضن أمها ولم تكف عن البكاء إلا بعودتها وبين أحضانها . ومنذ هذه اللحظة ، لم تفارقها دنيا .

***

تغيرت دنيا ، وتبدلت أحوالها ، عاداتها ، سلوكها ، قطعاً كان واجباً كل هذا التغير ولم يؤثر عليها شئ فى هذه الدنيا قدر ما أثرت عليها تلك الطفلة ، مولودتها ، منذ حملها بها .



وتغير فيها كل شئ ، كانت لا تعرف معنى العطاء ، فتعلمته دون معلم ، كانت تجيد لعبة الحياة ، تسخر كل شئ من أجلها ، وفجأة أصبحت أماً ، علمتها الأمومة ما عجزت عن تعلمه من الحياة .

لكن ..!!

ما بالها لا تشعر بأنها تضحى من أجلها ، رغم أنها تنازلت عن كل شئ فى سبيلها ، بلا تردد ، أو خوف أو قلق.

فجأة أصبحت لا ترى معنى لوجودها إلا من أجلها . كيف حدث لها ذلك ؟ فى لحظة واحدة ، قبلت المقامرة ، فى غيبة من الوعى والعقل قامرت بكل ما تملك فى سبيلها ، قامرت بحياتها ولم تشعر للحظة واحدة أنها تقامر أو تغامر أو تضحى . فالأمومة نعمة عطاء للأم قبل الابناء . فتعطى كل شئ دون تدخل منها ، يسعدها ذلك بل وتفعل ذلك غريزياً ودون تدخل منها أو رغماً عنها.

***



دخلت دنيا على طفلتها التى كانت تقف فى الشرفة ترقب موعد وصولها ، تنظر للمارة فى الشارع العريض ذى الخضرة العالية من كل جانب ، تترقب وصولها ، وكلما جذبتها الأم صرخت صرخة مدوية ، مرعبة ، فيها إصرار على وقفتها تلك ، وإصرارها على انتظار دنيا وقبل أن تدق دنيا جرس الباب تهلل الطفلة باسمها بطريقة متعثرة تبعث فيها جمالاً فوق جمالها ، وتفتح مربية المنزل الباب ، فتنهال دنيا على أشجان بالقبلات والأحضان ، مسرعة إلى غرفتها ، محملة لها بشتى ألوان اللعب المتحركة الباهظة الثمن والنادرة وتقول لها مداعبة :

— هيا يا إش إش ، جميع هذه اللعب من أجلك أنتِ .

وأخرجت دنيا من الصندوق سائر الحيوانات الشائعة وبنت لها سورا للحديقة وأوقفت كل حيوان خلف الأشجار وبينها.



كانت إش إش تمسك بالحيوانات تملؤها الفرحة والدهشة وتمسك بهم لاكتشافهم مغتبطة بهذه اللعب الجميلة التى يسحرها عالمها .

وبين حيوانات دنيا المتحركة وقردها الذكى الشقى (كوكى) الصغير والعرائس النائمة والراقصة ، وسباق القطارات والسيارات وأساطير دنيا الشيقة ، كبرت إش إش وترعرعت ، طفلة ، ذكية وقد جمعت فى خصالها أعلى الصفات وأجملها فوق خصالها البريئة ، كانت عيناها تنظران بمكر قطة شقية تحاول اكتشاف كل ما يحيطها ، فهى دائماً حائرة ، تريد أن تعرف كل شئ ، من أين أتينا ؟ ومن خلقنا ؟ وأين هو ؟ ولماذا تبكى دنيا كثيراً ، ولماذا تتخاصم مع أمها ؟ بل لماذا دائما أمها كثيرة الشكوى من دنيا لابيها ؟ ورغم أن دنيا كانت رقيقة ، جميلة ، وديعة إلا أن أمها تكرهها ، ودائمة الشجار معها ، لماذا تعذبها وتستمرئ عذابها ؟ ودنيا دائمًا هادئة لا تدافع عن نفسها فهى لا تئن ، لا تمل ، بل ولا

تجيب . كان أبوها " سرحان " دائماً ملطفاً لجو البيت من الشجار والعراك المتواصل الدائم بين دنيا والأم ضحية .

كبرت أشجان وكبر معها شعور ، قوى ، خفى بأن دنيا الإيطالية ، المظلومة ، المغلوبة على أمرها ، هى أمها . أو هكذا تتمنى أن تكون هى أمها لفرط ما تحمله لها من عواطف مختلفة ، لقد كانت ضحية الأم قوية صارمة وكثيراً ما كانت تشعر بأنانيتها فهى عنيفة ، قاسية .

دخلت الأم بينما كانت دنيا تداعب أشجان الصغيرة ذات الأعوام الخمسة وسط غرفتها الواسعة وتبدو أشجان وكأنها تطير بين كفيها فصرخت ضحية الأم قائلة :

ـ ألم أقل لكِ مراراً لا توقظى البنت لهذا الوقت المتأخر من الليل ؟ أأنت مازلت لا تفهمين ؟ ارتعشت دنيا وقدمت اعتذارها. وعلى الفور سحبت الأم أشجان من يدها الصغيرة فالتفتت أشجان حزينة لأنها تسببت فى لوم دنيا وأمتلأت عيناها الصافيتان بالسحب القاتمة التى كم تدربت



وهى فى هذا العمر الصغير على منعها من السقوط ، فتوقف أمطارها لتبتلع دموعها. وتبادلت نظراتها مع دنيا وهى تسير ناظرة خلفها متعلقة أبصارها بدنيا . فهمست دنيا قائلة بصوت خافت ولكنه مسموع :

ــ طاب مساؤكِ يا صغيرتى الجميلة إش إش .

وقفت الأم فجأة ، وكأنها سمعت كلمة نابية ، يجب الا تتفوه بها ونهرت دنيا تعنفها على مناداتها أشجان بـــ إش إش ، وأن هذا الدلع والتدليل لا يليق بهذا البيت ، ولا بالتربية المنشودة لها .

كانت أشجان تخاف كثيراً من عقاب أمها ، لئلا تنهرها هى الأخرى ، وانطبعت وارتسمت صورة غريبة للأم داخل الطفلة أشجان دون قصد أو عمد . كانت تود لو تستطيع لدافعت عن دنيا .. لو بوسعها أن تقضى كل أوقاتها معها دون أن تعكر صفوهما أمها .



ورغم أن الأم كانت لا تقسو على أشجان إلا أن أشجان نما داخلها شعور غريب بأن أمها ظالمة ، قاسية ، لا تحب دنيا ، وأخذ هذا الشعور يتضخم داخلها بمرور الوقت .

***

لم تتوقف أحلام أنتينورى عند استنساخ البشر بالطريقة المعهودة ولكنه أعلن أنه إذا كان الاستنساخ لا يؤدى إلى استنساخ الفرد ذاته فليس هناك ما يدعو لاستنساخ العظماء ، وكانت هذه المسألة تحيره ، تشقيه ، حتى جلس يفكر وسط أبحاثه عن الذاكرة والتعلم والذكاء والغباء لدى الفئران ، وانه إذا كان هناك تدخل فى زراعة جينات الذكاء واجتناب حدوث الغباء وزيادة القدرة بالجينات على التعلم والتذكر .. كما تؤكد تجارب الذاكرة على الحيوانات ، فالحيوانات تتذكر ما تتعلمه.



وكيف يتم نقل موروثات الموتى الذهنية وكل ما يتعلق بالمخ واستنساخه ؟

ظل ذلك شغله الشاغل ، طوال أعوام أشجان بعد خروجها واطمئنانه على حياتها ، إذ أن العالم لا يهدأ بنجاح اكتشاف ما ، بل أنه لم يعد استنساخ أشجان هو تحقيق هدف الاستنساخ إذ أن المسألة فى البداية كلها كانت محاولة استعادة الموتى مرة أخرى إلى الحياة لاستمرارهم ، أما أشجان فمسألة أخرى ، لكن مما لا شك فيه أنها كانت بمثابة ثقب الإبرة المضبوط ليمر خيط الهدف الأساسى وتحقيق الأسطورة الحقيقية باستخدام ميت .. بعقله .. وذهنه .. بذاكرته ، ليكمل مسيرة الحياة فى جسد آخر بمثل جسده .. وبهذا سيتحقق الهدف المنشود بتحقيق الخلود إذ إنه لن يموت هذا الفرد وإنما سيعاد فى مولود وجسد ثان مكرر وما هى إلا فترة بلوغ حتى تتكشف خلايا مخه بحصاد أعوامه الماضية السابقة والتى مات عنها .



ومر خيط أفكاره بسهولة ويسر من ثقب الإبرة وتبلورت فكرته ، وضالته المنشودة بعد نجاح تجربة أشجان .

***

وكلما كبرت أشجان ، كبرت بداخلها علامات الاستفهام التى لم تفارقها لحظة واحدة .

دنيا ..!! من تكون دنيا تلك ؟ إنها ليست مربية ، ولكنها أيضا ليست من الأقارب لجنسيتها الإيطالية !!غريب ! فما الذى جمعها بها ؟ لا تعرف . ولكنها ستعرف .أجل من المؤكد أنها ستعرف ، ولا محالة فى ذلك . من هى دنيا ؟وما هو موقعها من خريطة الأسرة ؟ هل هى غريبة ؟ أم قريبة ؟ كل شئ فيها يقول إنها قريبة ، بل و قريبة جداً أيضا ، ولا يمكن أن تكون غريبة عنها ، وكل ما تتذكره عنها محاولاتهم الكثيرة فى خروجها وطردها من البيت لإبعادها عنها ، دون جدوى فقد كان حبها لها وتعلقها بها أكبر من حقد وكراهية الأم



لدنيا ، فانتصر حب أشجان لدنيا رغم صغرها وقلة حيلها على كراهية الأم رغم قوتها وجبروتها.

وتعلمت الطفلة الصغيرة كيف تخفى مشاعرها إرضاء لأمها . خوفاً ورهبة منها وحرصاً على دنيا ..

لقد فتحت أشجان عينيها فرأتها قبالتها ترضعها تهدهدها ، تنظفها ، تلاطفها ، ترعاها ، تربيها .

فلم يتعلق بذاكرتها شئ قدر ما تعلقت هى بها ، فهى نمت بين أحضانها هى ولا أحداً سواها ،

ولكنهم لم يدعوها أم ويستبيحون أحقية تلك الكلمة لضحية وأنها أمها .

وإذا كان الحيوان لا يخطىء بفطرته فيمن ترضعه وترعاه فأشجان أولى بهذه الفطرة من الحيوان ولذلك فهى أمها ..



أمها هى دنيا وهذا هو شعورها . وليدعون ما يرغبون فى ادعائه من الأمومة ومن تلقب بهذا النداء ولكنها أمها وحسب وهذا هو كل شعورها بها .

لم تنم أشجان ولم يغمض لها جفن . نفضت غطاءها .

ونهضت من فراشها ، وفتحت باب غرفتها ومشت بخطوات متوجسة يملؤها الخوف والرعب من حضور أمها واكتشافها الأمر ودون أن تدق باب دنيا فتحت بابها بخفوت .

وأسرعت فى اتجاه فراشها وبمجرد ما تلفتت دنيا وكانت عيناها مليئتين بالدموع إلا وألقت أشجان بنفسها بين أحضانها ، فهمست دنيا بصوت يقطعه البكاء :

ــ أشجان .

أمسكت الطفلة وجه دنيا بكفيها الصغيرتين وقالت لها بنظرة يملؤها الحب والإخلاص والعطاء :

ــ كلا ، فأنا ، إش إش ، إش إش .



ثم قربت فاها من أذنها وهمست لها مداعبة ببراءة :

ـ هذا فيما بيننا ..!

وعرفت الطفلة أن هناك من يغار ويحقد فعالجت المشكلة بكل براءة وفطرة .

***

كبرت أشجان وكبر معها تراكم هذا الصراع الدائم وتلك الحياة ، والغريب فى هذا الصراع ، أنه كان حباً لها ، ومن أجلها بل و فى سبيلها أيضاً .

ولماذا تغار عليها أمها كل هذه الغيرة التى تبدو أحيانا حماقة وليست غيرة إذ إنها ملكية ورق واستعباد ، وكانت لا تعرف سر هذا الحب والقوة التى تشدها إلى دنيا ..



فهى دائماً تراها كالملاك الذى ليس بوسعه حتى الشكوى ، مجرد الشكوى كانت لا تقوى عليها ، وترى أمها وكأنها لا تريد أن تحب أحداً سواها وكأنها خلقت فى هذه الحياة من أجلها وحسب .

وكان الذعر الذى عاشته أشجان خوفاً من أمها جعلها لا تبادلها الحب كما كانت تفعل مع دنيا ، كانت تتظاهر بحبها ولا تجد مكاناً فى قلبها ربما للخوف منها ، أو لأنها دائماً تجرح وتقسو على حبيبتها دنيا.

تسأل دنيا :

ــ أنتِ دائماً رقيقة ، وديعة .

ولكن لماذا أمى ليست مثلك ، فهى سريعة الغضب ، حادة أكثر مما يجب ، تغار على من كل شئ ، فلنلتمسى لها المعذرة فى ذلك ، ولكن لماذا لا تحبك ؟ أجيبى على ؟

لماذا لا تحبك رغم عدم كراهيتك لها وحسن معاملتك ؟



فأنا لا أستطيع تصور أنه لديك القدرة على كراهية شخص ما ، وقربت رأسها من أذنها بشقاوة وابتسامة ساحرة وهى تقول :

ـ حتى ولو كان هذا الشخص هو أمى .

ـ إش إش صغيرتى الحبيبة ،

لا تفكرى فى مثل هذه الأمور وفكرى فقط فى عيد ميلادك ..

فغداً ستكونين أكبر عرائسك تلك المتحركة ، ولكنك أيضاً أكثرها شقاوة .

هكذا كانت دنيا دائمة المداعبة والملاطفة ، تبعدها عن كل الأمور التى تسئ إليها ، فهى أم ، والأم تبعد كل ما يؤذى ابناءها عنهم ، حتى لو كان هذا الأذى مجرد هواجس أو أفكار أو تساؤلات .



كانت كل يوم تزداد جمالاً ورقة فى عيون طفلتها فما أسعدها حظاً بهذا الشعور الجميل .

***

الفصل الثالث عشر

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله ،
وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم .
أبو الطيب .

مصير البنت المتوحشة ..!

وهكذا مرت بينهم الأيام .. حتى تضخمت الطفلة المستحيلة ، وساءت صحتها .. ونزعت من بين أيديهم بقوة القانون ، لتحبس وحيدة فى زنزانة المستشفى ، لتجرى عليها الفحوص والتجارب كفأر المعمل .

وبينما كانت أشجان تدون ذكرياتها تلك .. كان العلماء يترقبون حالتها .

وأعلن الجميع أنه إذا كانت حالة تضخم أشجان نتيجة لاستنساخها فهى من الآثار الجانبية التى تتعرض لها ، ولا



يعرفون بل لا يمكن توقع أى أثار جانبية أخرى ذلك لكونها الحالة البشرية الأولى والوحيدة المستنسخة حتى الآن .

وبدأت بالفعل أشجان تشحب ، ويتغير لونها ، وكأن دمها يتغير ، كلا لم يكن شحوبا كذلك الشحوب الذى نعتاده فى حالات المرض أو القلق أو الفتور ولكنه كان شحوباً من نوع آخر ، شحوباً غير كل ذاك الشحوب الذى ألفناه ، أصاب العلماء ما أصابهم من ذعر وهلع لهذه الحالة .

وأرتاب الجميع فى أمرها ، وزادت أعراض غريبة على مظهرها لم يستطع أحد الكشف عن أسبابها فأسباب التضخم غير الطبيعى ، وغير المعروف ، والذى كان يُظن باطلاً أنه خلل هرموني .

ولكن بقدر ما كان هذا التضخم يعد حللاً هرمونياً ، إلا أنه لا يمكن ، بل من المستحيل أن يؤدى إلى هذا التضخم غير المسبوق أبداً بأى حال من الأحوال .



وبدأت أطرافها تنحسر وكأنها تقصر هل من الممكن أن تتآكل بعض الخلايا فتؤدى إلى ضمور أو انكماش بعض الأطراف أو الأجزاء فى الجسم هالهم ما يرونه فى حالتها بل راعهم وبدأ البعض يخاف فحصها بل ويتحاشى الاقتراب مجرد الاقتراب منها أصبح يريبهم ويفزعهم .

وعقدت المؤتمرات وكثرت الندوات والمناقشات ونشرات الأبحاث التى يملؤها الرعب والخوف من تلك الحالة التى ليس لها مثيل أو شبيه على وجه الأرض .

وجاء قرار العلماء من كافة أنحاء العالم متوجساً مما يصيبها ومما قد ينتقل منها للآخرين .. وبحث العلماء عن طريقة ما لعزلها ولكن لا توجد تلك الطريقة أو الوسيلة الآمنة حتى الآن لمثل حالتها المتفردة إذ كيف سيتم التعامل معها فى مأمن من أى أخطار قد تنشأ نتيجة وجودها على قيد الحياة .. ونظر كل منهم للآخر فى أثناء المداولة ، لتقرير مصيرها فقال أحد العلماء بالإنجليزية :



ــ لا يوجد هناك أية أمال فى بقائها .

ــ كيف ولماذا ؟

ــ لأن خطورة بقائها واستمرارها على قيد الحياة بهذه الأعراض يتزايد كل لحظة عما سبقتها ليس ذلك وحسب وإنما خطورتها على الآخرين .. ولا بد من وقف أية تجارب عليها لأنها ستكون عبثاً لا طائل منها بالإضافة لتعريض المحيطين والباحثين لعلل لا نعرف مداها ولا عاقبتها .

ــ لكن ما بها من خلل كما نرى فى اعضائها وليس وباءً لنخافها ونخاف بقاءها ؟

ــ لا نعرف ؟ ولن نستطيع معرفة أى شئ سوى هذا التدهور الذى تتعرض له بمرور الوقت وتلك العلل التى تصاحب هذا التدهور لسنا قادرين على تحليلها أو الحيلولة دونها ، فنحن أعجز من مواجهة تلك الحالة .

ــ أتود أن تقول أنه لا مفر إذن من إعدامها ..!



تلعثم البعض وتوتر الوضع فقال مقرر (الجلسة والاجتماع) :

ــ كلا .. كلا . فليس تماماً مثلما قلت ولكن حتماً ولابد أنها ستواجه الموت فى القريب العاجل .

وردد آخر :

ــ قضاء و قدر .. فهذا القضاء والقدر سيكون هو الحل الأمثل الآن وليس هناك حل آخر .. وإلا ستكون المغامرة فادحة ، خاصة وأنها بشرية وليست حيوانية .

كان العلماء المصريون والعرب يعرفون جيداً أن مسألة إعدامها ستعرضهم للمساءلة والتجريم والتحريم ومشاكل لا حصر لها ولا عدد .

فكان لابد من مناقشة الأمر سرا وخفية وتقررت أن تكون هذه الجلسة سرية مخافة أن يتسرب الخبر فكان لابد من كتمانه وجاءت توصيات تلك الجلسة السرية بالاستمرار فى



الإعلان عن معاناتها التى تتدهور نتيجة إصابتها بعلل وأمراض مستعصية والتحذير من الاقتراب منها لأنها تقترب من سكرات الموت .

***

وعرف الحارس ما يضمرونه لأشجان و بدأوا بالفعل تنفيذ خطتهم وتداولت الصحف ووسائل الإعلام خبر مرضها الأخير غير المعروف وكثرة العلل التى حلت بها وأصابتها أخيراً ، لكن الحارس لم يستطع الصمت فأخبر أدهم بحقيقة الأمر ، وثمة ما ينتظرها من مصير حتمى يدبرونه لها ولن يكون الأمر قضاء وقدراً كما سيشاع وأتفق عليه .

فزع أدهم لمعرفته تلك الكارثة وهرول مسرعاً إليها ورغم حجابها عنه وعن الجميع حتى من المصورين والإعلاميين إلا أن أدهم تمكن من رؤيتها عن طريق الحارس.



وخوفاً من أن تحمل أشجان أمراضاً وعللاً مجهولة لا يمكن معرفتها ولا التكهن بها وخوفاً من الفشل فى مواجهة تلك الحالة ومعرفة ما قد ينتقل للآخرين من علل غير معروفة أيضاً كما حدث وحالة النعجة دوللى (Dolly) وتعنى دمية ، التى كان مصيرها الإعدام فكان قرار العلماء التخلص منها وأخفى الحارس هذا القرار عن أشجان خاصة بعد الاطمئنان بعدم نشره وإذاعته ومنعه من التداول باعتبار أن الأمر سراً.

ولكن بسرعة البرق نقله وبلغه لأدهم .

***

وتم القبض على الأم لمحاكمتها بتهمة فتح القبر ونزع عينات من جثة ميتة وتسهيل إجراء التجارب العلمية على الإنسان المجرمة قانوناً ومحرمة شرعاً .

أما الاب فرغم أنه كان معاوناً إلا أن دوره الثانوى جعله متفرجاً ومجرد شاهد على الأحداث ليس أكثر ولا أقل من ذلك .



وفوجئت دنيا بهذه الحقيقة التى تعرفها لأول مرة .

وجاءت محاكمة الأم والبحث عن حارس القبور الذى فتح القبر وساعدهم فى إخراج جثة الطفلة الميتة . وثبت من الخريطة الوراثية أن الطفلة المستحيلة (Eva) والتى تدعى أشجان كما أطلقوا عليها حواء ، ليست مستنسخة من الأم المسجلة بشهادة ميلادها .. لأن الخريطة الوراثية للطفلة المتوحشة ليست مطابقة لخريطة الأم وبناء عليه تسقط كل حقوقها كأم استنسخت منها هذه الطفلة ، وتمت محاكمة الأم بتهمة جريمة المشاركة فى مهمة إجراء التجارب العلمية البشرية وتيسرها والعبث بجثة الطفلة الميتة .

أما دنيا فكان الحكم لها بأمومة الطفلة المستحيلة أو المتوحشة حيث إنها حملتها وأرضعتها .

وراح المحامى يدافع عن أمومة دنيا للطفلة المتوحشة حتى انتهى الأمر بأحقيتها فى أمومة الطفلة .



كانت دنيا فى غنى عن هذا الإعلان . فطالما ما بقيت كامنة ، بعيدة عن الأنظار إلا أنها كانت تنعم بشعورها وبنوتها .. أما الآن وقد أجهضوا فرحتها بإعلان حقيقة استنساخ طفلتها .. لم يكن لديها ما يدعو للفرح أو السعادة بإعلان أمومتها المهددة .. فقد أجهض مرض إش إش بالتضخم فرحتها بهذا الإعلان .

واختفى حارس المقبرة ، كما اختفى العالم أنتينورى عن إيطاليا ، أما الأب فكان دوره فى القضية ثانوياً تماماً مثل دوره فى الحياة فى البيت فهو لم يزد عن كونه منفذاً لرغبات زوجته .

كانت المفاجأة مرعبة بالنسبة لدنيا ، معرفتها باستنساخ طفلتها ، وراحت دنيا تصلى من أجل ابنتها ، وتشفق عليها من معرفتها تلك الحقيقة .

وبهت أدهم مذهولاً وهو يقرأ كل سطر من تجربة أشجان العلمية واستنساخها ، وتذكر كم كانت تنقل له شعورها

بأن دنيا هى أمها الحبيبة ولكن ضحية مجرد أم رسمية وحسب ، فهى أخذت دور البطولة فى حياتها لتلعب دور الأم ولكنها لم تتقنه بعد .

***

وكم كانت قاسية تلك الأحداث على كل من دنيا وأدهم .. أما أشجان فقد عرفت كم أودت بها أنانية تلك الأم .. التى تحدت القدر لتشبع غريزة الأمومة بداخلها .. فها هى تحصد الأن ما غرسته .

لم تستطع يوماً أن تكون ابنة لها ، لم تحبها بفطرتها بل كانت تروض نفسها على حبها قدر استطاعتها.

***



الفصل الرابع عشر

من حرم العقل فلن يزيده السلطان عزاً ،
ومن عدم القناعة فلن يزيده المال غنى ،
ومن عدم الإيمان فلن تزيده الرواية فقهاً.
أنو شروان.

هروب البنت المتوحشة ..!

وراحت أشجان تكتب كل شئ ، بلا خوف ، بلا حذف ، بلا بتر ، بلا خجل ، بلا اختصار ، كان الخوف سائداً فى حياتها فبدأت بالخوف من أمها ، وحبها وتعلقها الشديد بدنيا التى كثيراً ما حاولوا اقصاءها عنها وتعذيبها بالحرمان منها وتدليل دنيا لأشجان وتسميتها إش إش ، ثم عداوة أمها وقسوتها على دنيا وسلبية وفتور أبيها وعدم اكتراثه بما يجرى حوله فى البيت ، ولعبها مع كوكى ، لعبتها التى تبادلها اللعب وجدها فى المدرسة ، وظنونها وشكوكها فى أحوال أمها ، وما تخفيه عنها وسر علاقتهم بالعالم الإيطالى والطبيب العالمى أنتينورى وبحثها



الطويل الدائم المتواصل المستمر عن السر واللغز الذى طالما حيرها ، وسرق النعاس من عينيها ، والذى باطلاً ما حاولت الأم اخفاءه عنها وبذلت قصارى جهدها فى تحقيق ذلك ، وفى الحول بينها وبين معرفة الحقيقة .

يا لقسوة هذه الأم !! كيف استطاعت ؟ بل كيف سولت لها نفسها ، الإتيان بكل ومثل هذه الأمور ؟ وكيف تجرأت ، واستباحت كل ذلك فى سبيل إشباع غريزتها تلك الأمومية بل الجنونية ؟

وكيف طاوعها كل هؤلاء بدءاً بالزوج ودنيا ونهاية بحارس القبور وأنتينورى ؟

كيف استطاعت تجنيد كل هؤلاء .. لخدمة رغبتها وتنفيذاً لهدفها المنشود ، وتطويع كل شئ لتحقيق أمومتها تلك المزعومة ؟ يا لهذه الغريزة أو الغرائز عندما تتمكن وتملك الإنسان لتسخره فى خدمتها فيتحول الإنسان إلى حيوان أعجم يجند كل إمكانياته تحقيقاً لرغباته وغرائزه دون التفكير فى



عواقب تحقيق وإشباع غريزته تلك .. لأنها إذا تملكت منه أصبح عبداً لغريزته مهما كانت نوعية تلك الغريزة فيتحول رغماً عنه لأداة يبحث عن إشباع حرمانه الذى لم يقو بعد على مقاومته ومنعه .

كانت تكتب وتسجل تجربة حياتها وشكوكها وعذابها حتى تذكرت أدهم ، وراحت تستعيد أحلى لحظات حياتها معه وشجرة مأواهما الوارفة الظلال ، كلا لم يكن ظلها وظلالها هى التى كانت تظلهم قدر ما كانت تستظل بظل أدهم الممدود وشارع الأمان الذى كم كانا يقطعانه ذهاباً وإياباً عدة مرات يومياً. لم يفارقها أدهم منذ أحبها ، كان يتبعها كظلها أينما حلت وحيثما كانت .

وبعد أن دونت كل مشاعرها وسجلت كل آلامها بدأت تكتب رسالتها الموجهة إلى أدهم ، رجاؤها له.

فلم تكتف أشجان بتسجيل ما حدث لها فقط بل شرعت تتخيل ما سوف يحدث بعد رحيلها أيضاً كما تتوقعه وتتمناه .



فراحت تتخيل حياة أدهم بعد رحيلها ، وإذا كانت الحياة قد حرمتها تحقيق لقائهما فلابد أن يحيا أدهم ويكون مثلما تمنت هى وكأنها معه لا تفارقه فليحقق حلمهما رغم العواقب والظروف .

ولن يكون وحده وشرعت تتخيله وهى تكتب :

وبعد أن دفنت أشجان وواروها التراب وعاد أدهم يحمل وحده روحها فى جسده ، لم يشعر بألم أو حزن ما.

***





كما شعر الآخرون لفراقها ، لأنها لم تفارقه بعد ، وإذا كان حقاً قد رحل جسدها الآن ودفن فى التراب ، فجسده هو مازال حياً ، فوق التراب ، ليحمل وحده روحين .. روحها وروحه معاً .. وفى آن واحد . ليحقق حلم حبيبته .. وراحت تتخيله . وظل أدهم ناجحاً ، طلق البيان ، عارفاً بمختلف الفنون والآداب .. شاعراً ، مشهوراً ، لتقابله أجمل أشجان مرة أخرى ، وترافقه مشوار حياته علها تحقق له ما عجزت عن تحقيقه حبيبته الراحلة ، وينجب أدهم أشجان الصغيرة .

وألقت بالقلم برهة من الوقت وسالت دموعها وهى تتمنى تجنب ما جنته وتعاود تمسك بالقلم لتكتب :

لكنه سينجبها إنجاباً شرعياً هذه المرة ، دون الحاجة لأنابيب أو بويضات أو أرحام أو مرضعات .

سينجب أشجان الصغيرة دون اللجوء لعلماء وأطباء ومعامل وبحوث والنبش فى القبور.



دون تحد للقدر ..!

سينجب أشجان الصغيرة من زوجته وحسب ، لتكون أشجان طبيعية لا عملاقة ولا ضخمة ولن يكون هناك ضمور أو تآكل أو فحوص أو زنزانة . ستكون أشجان صغيرة ، رقيقة ، لتحلق كالفراش ليجرى خلفها أدهم العجوز وسيلحق بها ، كعادته معها رغم كبره وعمره ، سيلحق بها لا محالة .

وأجهشت بالبكاء ، ثم توالت كلماتها على الورق أما أنا أشجان المستنسخة فدعنى لألحق بالآخرة ، وكما ظللت على عهدى باق فعاهدنى على تحقيق ما تمنيته فكن سعيداً قدر استطاعتك يا حبيبى ، حتى أستريح ، وتأكد إننى لن أرحل عنك أبداً ، وإذا كان جسدى قد رحل عنك فروحى لن ترحل عنك بعد .. لأنها راحلة إليك وحدك يا حبيبى . سأرحل إليك لاسترخى فى قلبك الوثير.

وحين أنام .. تصحو .. لينبض قلبك بى ..



وأدق به فؤادك ذاك الصغير .. لأسرى فى دمك .. أجدف ، أسبح أبحر ، أرسو ، حيث شئت .. وكيفما ملت أميل .

كانت رسالة طويلة . لم تكن رسالة حب ، أو نداء أو حتى شكوى ، لكنها كانت رسالة حياة ، حياة كتب عليها العدم ، حياة لم تر فيها سوى المعاناة ، معاناة طفلة بحب أمها ، ومحاولة التفريق بينهما ، ثم الشك فى وجودها ، ثم مرضها الذى كشف المستور والشك فى علاجها . وبين كل هذه الشكوك كان هناك إيمان واحد يملؤها بحب أدهم ، الشئ الوحيد فى حياتها الذى كان لا مراء فيه . ورغم إنها كانت رسالة لا تحمل سوى الدعوة للحياة إلا أنها كانت رسالة وداع. وددت ولو أراك الآن .. أو يترفق بى الله فيسمح لى برؤياك ولو لمرة واحدة قبل الموت .. ولكن يبدو على الآن أن أودعك .. فمن رحمة الخالق بنا ألا يعلم أى منا متى تحين الساعة . فجأة تراه قبالتها.. أدهم ..!



تدفن وجهها بين يديها وتنتحب .

يهدؤها أدهم ويلملم أوراقها المبعثرة .. يخبرها بموعد الهروب والخروج من تلك الزنزانة الكبيرة .

***

بذل أدهم قصارى جهده محاولاً تهريبها من المستشفى ولكن كيف ؟ وهى بكل هذا الحجم الهائل الضخم ؟

وقبل الحارس مساعدته مقابل مبلغ كبير من المال ، لم ير أدهم أمامه من يساعده فى ذلك الأمر سوى دنيا التى ظلت تمنح وتعطى كل ما بوسعها لأشجان فهى أم والأم عطاء .. وعطاء الأمومة غريزة لابد من إشباعها وإلا دمرت العالم مثلما فعلت ضحية .

نجح أدهم فى وسيلة لهروبها ومضى فوق ذراعها كعصفور يغرد لصاحبه ورفيقه .

وخرج أدهم تحمله أشجان على كتفها وقد بدا لها وكأنه طفلها الصغير ولكنه كان كبيراً شامخاً فظل يرشدها



الطريق الذى حدده لهروبها .. وسارا .

كان يحط كطفل بين ذراعيها يدنو منها يهمس إليها بالجديد من أغانيه تداعبه بأناملها فيستجيب لها.. يهفو إليها فيقول:

ــ تعالى نغيب عن ضجة الدنيا ونمضى عن الوجود ونرحل لنسكن دير الهوى .

تجيبه أشجان :

ــ الهوى خجلان دامى الوجنتين وحنينى لك مكتوف اليدين.

ــ أشجان أأصبحت شاعرة أنتِ الأخرى !!!

همست :

ــ من كثرة ما أشعر به أصبحت شاعرة ..أليس الشاعر من فرط الشعور سمى شاعراً.

ــ كلا يا حبيبتى فالشاعر هو الإنسان الذى يشعر بما لا يشعر به الآخرون لفرط ما به من إحساس وإنسانية .



ابتسمت بإعجاب ..

كان فى كل أحاديثه يحاول جاهداً أن يخرجها من سجن عذابها .. فتحيل كلماته هذا العذاب واليأس إلى رضا وسكينة وعذوبة .

***

كان أدهم يعرف جميع التفاصيل التى ذكرت فى مجلة صباح الخير عن استنساخها ولكن الذى كتبته أشجان عن تفاصيل حياتها وشكوكها وعذابها وآلامها التى تحملتها وحدها وأبت ألا يشاركها ويقاسمها إياها كانت تعذبه فراحت دموعه تبلل أوراقها أو رسالتها تلك الطويلة .

كم مضى عليه من الوقت هكذا وهو يقرأ وهى مستغرقة فى سباتها العميق .. ؟ ساعات .. وساعات طويلة كانت فى نوم عميق وكأنها لم تنم منذ عهد طويل . وما أن أشرقت الشمس حتى طوى أدهم صفحات أوراقها . وبمجرد أن راح يمر بأصابعه على شعرها حتى فتحت عينيها لتبصره



بجانبها ، فابتسمت وقد نسيت كل شئ إلا وجوده معها . كلا لم يشعر للحظة واحدة بالخوف منها رغم التحذيرات التى كتبت عنها إلا أنها بدت أمامه كحورية من حوريات الجنة هكذا كان يراها أدهم .

ورغم أن الصخب والدوى كان يرتفع فى كل مكان حيث انتشر بسرعة البرق خبر هروب الطفلة المتوحشة والبنت تحمل أسراراً مجهولة غريبة أمراضاً قد تسئ للآخرين إذا انتقلت إليهم ..

من الممكن أن تصيبهم بأمراض غير مسبوقة وتنقل لهم عدوى مجهولة الهوية وغير معروفة ..

فلا يجب الاقتراب منها أو التستر عليها وإخفاؤها بأى حال من الأحوال .

وأعلنت حالة من الطوارئ غير المسبوقة فى سائر الطرقات وأُعلن حظر التجول فى المدينة وعدم الخروج من المنازل لحين العثور عليها .. وهلعت الجماهير خوفاً من



الطفلة المتوحشة وخرجت القوات يميناً وشمالاً بحثاً عن البنت المتوحشة .

كلا .. !

لم يشعرا بهول وفزع وهرولة الجماهير التى كانت تصخب من حولهما .. وكأن الحب الذى بينهما أسكرهما فلم يعيآ بأى شئ حولهما سوى وجودهما سوياً .

كانت تهدهده فيداعبها كطفل ورغم ضخامتها تلك إلا أنها كانت تستطيع أن تحتضنه بين ذراعيها فقلباهما كانا يتعانقان . وهو يفكر فى آلامه فيقول لها :

ــ كم كانت الأيام سخية ، فى عطائها لى بالآلام يا أشجان .

وفجأة تم العثور عليهما .

وبمجرد أن اعتدلت فى جلستها حتى أشار بعض رجال الشرطة تجاهها .

***



الفصل الخامس عشر

أحق الناس أن يحذر :

عدو فاجـــــر ،

وصديق غادر ،

وسلطان جائر .

من الحكم الهندية

مناجاة الموت ..!

كانت لضخامتها تسير .. وما هى بسائرة ، لكنها محطمة لكل ما تمشى عليه .. فهى ثقيلة الوزن .. كبيرة الحجم .

وسارا سوياً بعيداً عن الناس ...

وأخذ الأمر يذاع فى جميع نشرات الأخبار ، وكافة وسائل الإعلام .. التى حملت التحذير والترهيب من الاقتراب منها أو التستر عليها وأذيع البيان التالى :



لقد هربت البنت المتوحشة فى فجر اليوم ، وعلى من يلمحها أو يعرف طريقها أو مكانها إخطار مراكز الشرطة بأسرع وقت ممكن وإلا ستدمر المدينة .

كما أنه يتم معاقبة من يتستر عليها أو يخفيها حيث إنها مصابة بأمراض وعلل مستعصية وغريبة ولا يمكن السيطرة عليها ومعرفة مدى خطورتها ونقلها للآخرين .

وبمجرد أن سمع الناس هذا البيان هرولوا بفزع يجرون يميناً وشمالاً بحثاً عن ملاذ يقيهم منها ..

كانوا يفرون منها قبل العثور عليها فرارهم من الموت وكأ نهم خرجوا من الأجداث فراحوا من كل حدب ينسلون .

***

وكان صوت الضجيج والفزع يملأ المدينة فتوقفت أشجان عن السير وهى ترى الناس وكيف يخشونها.



هالها المنظر ..

ولم يفزع الناس قدر فزعها من رؤية فزعهم منها.

وظهرت أشجان بضخامتها المفزعة لتدمر كل ما يقع تحت قدميها من منشآت وسيارات ومبان دون قصد أو نية وهى لا تعلم .

وخرجت الجماهير فى ذعر وفزع من متاجرهم بل أغلقت المتاجر فور سماعهم بهروبها

وهرول الناس من بيوتهم كالفراش المبثوث بحثاً عن ملاذ يقيهم شر تلك الكائن المتوحش ..

الحامل لأمراض وأسرار مدمرة ..

لم يتحقق أحد من رؤية ملامحها لضخامتها إلا أن شعرها الكثيف الطويل الذى كان يتدلى فوق ظهرها فيغطى



أسفل ردفيها كان واضحاً جلياً إلا أنه كان مرعباً فبدت لهم كجنية مخيفة مدمرة من أبطال الأساطير المرعبة.

فلم يتبع أثرها أحد من الجماهير خوفا منها بل فروا منها فرارهم من الموت .

لا تعرف أشجان لماذا وإلى أين هربها أدهم ؟ ولماذا أذعنت لرغبته تلك هكذا فجأة ؟

وهى تعلم جيداً صعوبة ، بل واستحالة الحياة معها .

قالت له باضطراب وهى ترتعد :

ـــ انظر يا أدهم ..

كيف يفرعنى الناس الآن ؟

وكيف تتهدم الأشياء والمنشآت تحت قدمى ؟

لماذا أذعنت لك وجئت معك وطاوعتك ؟

لماذا ؟

وراحت دموعها تسيل فوق خديها ليلتقطها أدهم

وأردفت تقول :

ــ كان أهون عليّ أن أموت على أن أرى ذلك الفزع والرعب يملأن عيون الناس .. ؟

ليتنى أموت الآن ..

كى أريحك وأريحهم وأستريح ؟

وراحت تنتحب .

ولكنها كانت تجد رغبة قوية فى طاعته ..

إذ كان من السعادة لديها أن تطيعه لتفعل كل ما يرغب .. لتحقق له السعادة ..

رغم إحساسها بقرب النهاية إلا أنها آثرت الموت معه على موتها فى الأسر وحدها فى زنزانة المستشفى .

وعاد ادهم جباراً ..

يهز صراعه الكون من أجل حبيبته.



ورغم أن القوات حاولت عدم قتلها ورميها بالرصاص الا أنها فى أثناء سيرها لتجنبهم دمرت خطواتها العريضة الواسعة الثقيلة العديد من المنشآت والسيارات وهلعت الجماهير وهرولت بحثا عن مكان تلوذ به خوفا من الطفلة المتوحشة .

***

كانت تراهم بعين الآسى ..

الجميع يخافونها ..

ورجال الشرطة يهددونها بإطلاق الرصاص والكل لا يرحمها الا قلب واحد نفضته بقوة ليبتعد عنها حتى لا يصيبه أذى من طلقات الرصاص .

وتوالت صرخاتها برجاء أدهم بالابتعاد عنها حتى لا يأسرونها على قيد الحياة ..

لكن أدهم تشبث بها متعلقا بآخر أمل فى البقاء معها ولم يطل الصراع بينهما وبين رجال الشرطة الذين قرروا إطلاق الرصاص عليها ..!

ماذا فعل بها المرض ؟

كانوا يولون الأدبار فزعاً ورعباً منها ..

صرخ أدهم وهو يحول دون تحقيق ذلك صارخاً :

مستحيل ..

أرجوكم ..

لا تقتلوها ..

وان ظفرتم بقتلها فاقتلونى قبلها .

وأطلق عليها الرصاص الواحدة تلو الأخرى

وراحت كل رصاصة تدمى قلبه قبل قلبها .

ـ أدهم لقد تمنيت الموت وأنت بجانبى حتى لا أعانى من الوحدة والخوف مرة أخرى ..



أود أن أرتاح إلى الأبد ..

وها أنا أحقق أحلامى ..

أرجوك يا أدهم لا تبك من أجلى ..

لقد تعاهدنا ان يسعد كلانا الآخر فلا تعذبنى وتتعذب برحيلى .

ــ أنت ترحلين إلى يا حبيبتى ،

ترحلين إلى قلبى فلتهدئى وتسكنى .

ــ أرجوك يا أدهم لا ت..ب..ك...

وهدأت وغابت عن الوعى ..

مد يده إلى يدها العريضة الضخمة الضعيفة الواهنة ..

وضعها على صدره

كأنما يريد أن يمد حياتها بتلك البقية الباقية فى قلبه من الحياة لتعيش معه .

لا يصدق أنها رحلت ..

***





يتلفت يمينا وشمالا ..

نظرات مضطربة مذعورة ..

يصرخ .. كلا ..

لن تموتى ..

وفجأة سكنت .

وتماسك .

ساكنة هى وليست نائمة .. ليس على وجـــــهها أثر واحد من آثار الآلام التى يقاسيها المرضى .. يحسبها الرائى نائمة وما هى بنائمة .. صرخ :

كلا ..

لم تمت لقد مات كل شئ دونها ولم يبق سواها ..

وجن قائلا :

إنها ستصحو الآن. صدقونى ..



إنها نائمة ..

فلا تزعجوها ..

لا تقلقوها ..

دعوها وشأنها ..

بل دعونا وشأننا..

وراح يصرخ بلا صوت ويبكى بلا دموع ..

***

كان أدهم قد قاسى كثيراً فى تلك الأيام الأخيرة التى قضتها أشجان خاصة الساعات الأخيرة ..

ولكن ما قاساه فى تلك الليلة كان يفوق طاقته واحتماله كإنسان ..

فقد كان الأثر الذى تركته أشجان فى نفسه كفيلاً بأن يضله عن سبيل التفكير السليم ..



كان حبه لها بمثابة جميع الأدلة التى تدحض أى اعتقاد برحيلها وفنائها .

وحملوها رغما عنه ..

نزعوها منه ..

لم يحمل نعشها عدد من الرجال بل حملته سيارة ضخمة . ولم يفارقها أدهم لحظة واحدة ..

كان نعشاً فريداً ..

لم يكن له مثيل من قبل .

كان صامتاً ..

بل واجماً ..

مذهولاً ..

يسير وراءهم حتى حملها معهم فوق كتفه .

***



وفى حى الموتى الذى يختلف كل الاختلاف عن الأحياء العادية إذ ليس هناك مسالك وشوارع كمدن الأحياء حيث لا يسكن هنا سوى الموتى .

ورغم أن النهار كان يملأ الأرجاء و الشمس كانت تتوهج .. إلا أنه شعر بأن الظلام كان شديد الحلكة .

وجاء خدام المقابر يتسابقون على فتح المقبرة لتدفن أشجان فى نفس قبر توءمتها ومدفنها..

كان قبراً مميزاً وثيراً غير كل المدافن التى ألفناها ..

فلم يكن هناك أسهل من العثور عليه بين مدافن ومقابر الآخرين .. إذ إنه ليس كسائر المقابر ..

فليس هناك أيسر ولا أسهل من العثور على قبر الطفلة الصغيرة الوثير ..



لأنه مزين بأزهار وخضرة ،

مختلف عن سائر القبور فهناك بستانى القبور الذى كلف بعناية هذا القبر منذ دفن الطفلة به مقابل مبلغ من المال يتقاضاه شهرياً كان القبر الوحيد الذى يصعب بل ومن العسير أن يظن أنه قبر فهو بمثابة البستان .

ودخلوا حى الموتى ..

وجاء خدام المقابر ..

وكان أدهم يسبقهم ليفتح مقبرتها بكفيه ..

كان كالأبكم ..

لم ينطق بكلمة أو صراخ أو عويل ..

بل كان كمن قرر شيئاً ما ..



وما عليه إلا تنفيذه بكل الصمت ..

دون ثرثرة أو إزعاج أو صخب .

وفتحت المقبرة ..

التى لم ترقد فيها سوى جثة الطفلة الصغيرة الراحلة توءمها .. والتى فتح قبرها للمرة الثالثة ..

لدفنها مرة أخرى ..

ما لهذا الإزعاج الذى يسببونه للموتى وللطفلة الصغيرة البريئة ..

التى لم تهدأ بعد فى رقدتها ..

وفى مقبرتها تلك ..

فأباحوا جثتها ، وانتزعوا خلايا من جسدها الميت ..

ثم أعادوها ليفتحوا قبرها من جديد ..

ليلقوا بها مرة أخرى ..



فيعيدوها مرة أخرى .. كبيرة عملاقة .

حفر أدهم قبرها بيديه ..

بلا خوف أو وجل ..

غريب هو أمره ..

صامتاً ..!

وكأن النوايا التى كتمها بداخله جعلته بهذا الصمت والوجوم وليس الاستسلام لأنه قطعاً منفذها دون تردد أو خوف أو وجل ..

وبعد أن نزل خادم المدفن ومعهم أدهم ليرقدوها فى الغرفة المظلمة من جديد ..

صعد خدام المدافن وحراس القبور إلى أعلى المقبرة وانتظروا ..

وانتظر معهم كل من أهل أدهم ، وأهل أشجان صعود أدهم .. !!

فما باله لم يصعد بعد .

نادوا عليه ..

أدهم .. أدهم ..أدهم ..

فلم يجب ..

وعلت أصواتهم ، بل صراخ بعضهن :

أدهم .. اصعد يا أدهم ..

كلا لم يسمعهم بعد ..

لقد رقد أدهم بجوارها ولف ذراعها حوله وكأنها تحيطه ..

وأغمض عينيه ..

مثلها تماماً ..

وهدأ ..!!

وصرخ الجميع أدهم ..

وتوالت صرخاتهم كلا لم يجب ..



لم ينطق ..

لم يتحرك ..

وكيف يجيبهم وهو لم يسمعهم قط .. ؟

وكان يسمع صوت أشجان وهى تناديه :

ـــ إنى خائفة يا أدهم ..

لا تدعنى فى تلك الظلمة وحدى ..

وراح يحدثها :

ـــ لن اتركك يا حبيبتى ..

فأنا معك أينما كنتِ .. فلتنامى ولتهدئى علنا نستريح سوياً من هذه الدنيا.

وراح يودع الدنيا ويغنى أنشودة الوداع :

سلام على الدنيا سلام مودع ... رأى فى ظلام القبر أنسا ومغنما

أضرت به الأولى فهام بأختها ... فإن ساءت الأخرى فويلاه منهما*

* حافظ إبراهيم.



كان يحدثها بصوت غير مسموع ..

لا جهراً ولا خافتا..

وانتظر ..

انتظر بفارغ الصبر أن تفتح عينيها ..

لتصحو من نومها كما فعلت منذ ساعات ..

لكنها لم تفعل .

وفجأة ..!

وجدهما ينتزعانه نزعاً من جانبها ..

أمسك بها متعلقاً ..

وتوالت صرخاته كطفل يتشبث بأمه ..

لكنه فشل فى البقاء معها.

وتوالت صرخاته عنيفة قاسية ترج المقابر فتخال الموتى، ينبعثون من أجداثهم ، لفزعهم ، وكأنها فزعة البعث. وأقصوه عنها وراحوا يغلقون المقبرة دونه ومنذ هذا الحين وراح أدهم يهذى بها فى كل مكان ..



أتظنون انها ميتة ؟

كلا ..

إنها نائمة ..

فقط نائمة ..

وليست ميتة ..

كلا ..

لم تمت بعد ..

لقد مات كل شئ دونها ..

ولم يبق سواها شئ ..

وجن قائلاً :

كلا ..

إنها خلقت الساعة فقط ..

وردت إليّ ..

مات بموتها كل حى فى هذا الوجود ..



وراح يضم رسالتها التى لم تفارقه لحظة بين ضلوعه فهى كل ما تبقى له منها ..

ينتظر الموت ويغنى بها من كربه فينادى الموت قائلاً :

يا موت قد مزقت صدرى ** وقصمت بالأرزاء ظهرى
وفجعتنى فيمـــن أحـــب ** ومن إليـــه أبث سرى
وهدمت صرحاً ، لا ألوذ بغيره، ** وهتكـــت ستـــرى
وفقدت كفـــاً ، فى الحيـــاة ** يصـــدُ عنى كـــل شـــر
وتركتنى فى الكائنـــات أئن ** منفـــرداً بإصـــرى ،
وأجوب صحـــراء الحيـــاة ** أقول : أين تراه قبرى ؟
ماذا تود من المعذب فى الوجود ** بغيـــــــــر وزر ؟
خذنى فما أشقى الذى يقضى الحياة ** بمثـــل أمـــرى*

تمت بحمد الله

---

* أبو القاسم الشابى



الفهرس



***


٣٢٨